واسيني الأعرج

أحلام مريم الوديعة

حكاية مصرع الساموراي الأخير

رواية





أحلام مريم الوديعة

أحلام مريم الوديعة

* واسيني الأعرج
* أحلام مريم الوديعة
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الثانية 2008
* موافقة وزارة الإعلام رقم 99273
* الناشـــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

إهـــــداء ٢٠١٠

الاستاذ الدكتور خالد عزب

جمهورية مصر العربية

واسيني الأعرج

أحلام مريم الوديعة

«حكاية مصرع الساموراي الأخير»

رواية

ترجمة: عدنان محمد

واسيني الأعرج. مواليد 1954 بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت أكثر في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، الليلة السابعة بعد الألف بجزأيها: رمل الماية والمخطوطة الشرقية، التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

ـ في سنة 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

ـ تحصل في سنة 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

ـ اختير في سنة 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

ـ تحصل في سنة 2006 على جائزة المكتبيين الكبرى.

- فاز في سنة 2007 بجائزة الآداب الكبرى (الشيخ زايد) عن رواية: كتاب الأمير.

- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الدنماركية والإسبانية.

حيث يسود الخداع، تختفي الحقيقة.

«دون كيشوت»

ميغيل دِ سرفانتس

الجنون الأخير

هل بقيت للصراخ قيمة؟ لا أدري.

مريم، أيتها الحبيبة المنسية وسط ضجيج المدن الهاربة واختلالات الرجال الغامضين، لا تقنطي، فالمدينة التي تعارفنا فيها لأول مرة، لم تتخل عن وجهينا ولن تخون الحليب المر الذي رضعته من صدرك في ذلك اليوم المظلم الذي صممنا فيه أن نخون كل شيء إلا حبنا.

مريم، يا آخر السلالات التي قاسمت القديس أغستين ظلمة قبره، لو يقدر لي أن أبعث ثانية من مدافن الطفولة وأعود إلى سماء هذه المدن الحجرية الهرمة، سأُقدم بفرح *الساموراي* على ارتكاب نفس الحماقة وسأكتب عنك أجمل أناشيد المطر وأدخلك أعراس *الغيمة* البنفسجية التي حلمنا بها وسأطالب بالطفل الشقي الذي نسيته في رحمك قبل أن أغادرك للمرة الأخيرة، مرغماً، تحت قسوة العيون الهمجية..

مريم، لا تقلقي كثيراً.

يمكنك اليوم أن تشفي مني بكثير من الحب وقليل من النسيان.

هل بعد كل هذا ما تزال عيوني ملعونة؟(*)

(*) ضبطت هذه القصاصة في جيب الرجل الذي لا يحمل إسماً، بعد وفاته، في ظروف غامضة بطعنة سكين بارد، مع وثيقة قضائية متلفة وقلم وقداحة وشريط يحمل عنوان «كارمينا بورانا» وأشياء أخرى لم يذكرها المحققون.

الفصل الأول

الشمس الملوثة

«ـ ما هذه الصدفة العجيبة؟ صالح هنا؟ ويريد قتلها وهي ضاعت في السوق الشعبية وكان علي أن أجدها قبل فوات الأوان».

لم أدر من أين جاءت الضربة. كانت سريعة وجافة. بدا لي أني استطعت فقط وأنا أنحني من شدة الألم، أن أرى شكل الحذاء الأسود وخشونته. البقية، لم أر شيئاً، فقد بدت الوجوه والأصوات مبهمة.

«ـ الدم ينزف كالشلال الساخن وبيت حميدو ما يزال بعيداً».

علي أن أقلل من الركض المؤدي إلى موت محتوم بدون أن أتوقف.

الآن لم يعد جسمي يطاوعني. أشعر بفتحة الجرح تتسع كلما جريت. الدم صار يتدفق بقوة ويرسم خطاً مستقيماً من أعلى الظهر إلى الأسفل. لم يعد شيء يهمني سوى الوصول بأقصى سرعة ممكنة إلى بيت صديقي الوحيد في هذه المدينة، حميدو، لتوديعه ولو زحفاً على اليدين. ربما اقترح عليَّ الذهاب إلى أقرب مستشفى في المدينة. الضربة كانت باردة مثل هذه الليلة التي لم تستطع استرداد أنجمها. لم تكن مؤلمة جداً، لأن السكينة التي ارتشقت باستقامة على الظهر، دخل رأسها الحاد بين الضلوع بسهولة بعد أن هتك الأغشية الرخوة وأتلف مقاومة الجلد النازف. لم أستطع سحب السكين. عيون الناس مدورة، يبدو لها ما حدث شبيه بالخدعة السينيمائية وأني سرعان ما أنزع السكين المرتشق في الواقي الخشبي الذي وضع على ظهري. بعضهم كان يضحك مومئاً بغمزة عينيه بأنه متفطن للدعابة.

أتذكر، أني، حين ارتسم الجرح على الظهر، زممت فمي مثل حلزون صيفي وضغطت على قلبي وعلى ورقة الدعوة القضائية في كفي والتي مازلت إلى اللحظة أتذكر كل تفاصيلها *[الرجاء حضور الجلسة القضائية القادمة التي ستعقد بـ: الأول من شهر مايو..19. الحضور ضروري وإجباري حتى لا تتخذ إجراءات قضائية صارمة ضدكم. شكرا]*. لم أشعر وقتها بألفة تجاه الآلة التي كتبت حروف الدعوة. نسيت الجرح، كانت المدينة تهرب من كفي، على متن ورقة دعوة قضائية، ومن عيني كحبات رمل ملوثة بدم شمس قتلت هذا الفجر. تحترق وجوه الناس في ذاكرتي، حطباً جافاً كعظام الموتى. خزراتهم مذعورة من النجوم التي تخشى النظر إلى تفاهاتنا. أسمع قعقعة الرعد الذي كان يشتعل في سماء فقدت مبرر زرقتها تحت ضغط هذا الضباب الكثيف. شعرت بنفسي وأنا أندفن في غيوم المدينة كآدم وحواء عندما قذف بهما الله وسط قفر الدنيا وعراء الصحاري والخوف. كان الله صادياً يومها ولم يكن غفوراً رحيماً، ربما لم يكن في يومه الطبيعي، تمتمت وأنا أعبر ممرات السوق قبل أن أستغفر الله على ما بدر مني من شدة الألم.

وقفت لحظة أحدد المسافات التي تبعثرت على هذه الشوارع. أين أنا بالضبط؟ أحاول أن أسترجع بصعوبة ذاكرتي وحدة بصري الذي بدأ يتضاءل.

الليل نزل بسرعة. والمدينة موصدة القلب، تضم إلى قبلها أشياءها الثمينة قبل أن تنزع من جذورها وترمى في براميل وأكياس القمامة التي صارت مرتعا للقطط الضالة.

تنتابني الأسئلة التي تصطدم بالخواء:

ـ ماذا فعلت يا الله؟ أين الجريمة التي أحاسب عليها اليوم؟

تذكرت صديقي صالح الوراق الذي ضبط، مع سبق الإصرار، يخطط رسماً للقمر فاعتقل بتهمة الخيانة الوطنية العظمى والعمل لدوائر أجنبية رفض المحققون ذكر اسمها. وحين غادر صالح

الوراق حفرته السوداء خنقته الأوراق الصفراء التي تملأ رفوف بيته والغبار الذي تراكم على القلب المتعب.

الغثيان يأكل تفاصيلنا الجميلة. تتنفسنا المدينة ونتنفس روائحها التي لا تستقر. تساءلت مرة أخرى بذعر العصافير التي فقدت أعشاشها فجأة وأنا أعبر زقاقا قديما بدأ يتهاوى.

ـ ألا توجد زاوية صغيرة واحدة وسط هذا القفر تستحق أن نتعايش معها وربما أن نحبها؟

ـ يا فاوست لماذا تزيد من مشقتك؟ من الأحسن لك أن تصمت وتمشي بسرعة أكثر. حاول أن تظل مستقيماً وأن تدخر جهدك. أنت تنزف والتهم التي تحمل على ظهرك كبيرة.

ها هو ذا يعود حتى بدون أن يسألني عن رأيي، كما تعود تماماً أن يفعل. يحسسني دوماً بأني فاوست وبأنه الشيطان الذي يلتصق بي. المشكل أني لست فاوست لأني رفضت أن أبيع روحي وليس سفيان الجزويتي هو الشيطان لأنه لم يطلب مني روحي ولكنه أخذها مني عنوة.

ـ يا لطيف! السارجان؟ ديما أنت على رأسي كاللاز؟ أنت لا تتحرك إلا لتثبت لي أنك ما زلت تتبعني كاللعنة، السارجان سفيان الجزويتي.

ـ ألم أقل لك إن مصيرك ومصيري واحد يا صديقي فاوست؟

ـ لست فاوست ولستَ الشيطان. أي مصير وأنت تقودني نحو خراب أنت تصنعه وتريدني أن أتبعك حافي القدمين إلى التهلكة؟

ـ أنا لا أصنع شيئاً إلا ما تصنعه يداك ولسانك الذي لو قطعته لأرحت الأمة والأهل ولرحمت جسدك الذي لم يعد يطيقك.

الله يلعن اللحظة بنت الكلب التي وضعتك في هذا الدماغ المرهق والمتآكل.

قالت صديقتي التي كانت تحب صالح الوراق الذي فوجئ جثة

باردة تحت ركام الكتب الصفراء التي كان ينزلها إلى الشارع كل يوم جمعة أو أحد أو كلما أشرقت شمس في أيام الشتاء الباردة.

- الأرض مغلقة يا حبيبي.

- ومع ذلك، يجب أن لا ننسى أن الدنيا في أيدينا.

- قلت لك إنها ترفضنا. لسنا شيئاً في حساباتها الكبيرة.

- واليأس لا يوصل إلا إلى الأبواب الموصدة.

- هذا ليس يأساً ولكنه لغة الدنيا القاسية.

مرت على ذلك الزمن، مسافات بعيدة بعد الشموس الجميلة. لم يكن أمامنا غير أن نفرح أو نموت مثل القردة المسجونة. نملأ شعلة الفرح بالضجيج، نرقص، نجري نحو متاحف المدن البعيدة التي تتخبأ وسط الحدائق الجميلة. المتاحف تذكرني بميتة الساموراي التي مارسها أبوك حين سكر حتى العمى ثم انزلق إلى داخل قنينة النبيذ الأخيرة. تكوم كالجنين ثم سد على نفسه. حدث هذا، قبل أن يجده أحد الزبالين على أطراف الشوارع الخلفية ويبيعه إلى أقرب متحف على أساس أنه إحدى المعجزات الوطنية التي يمكن أن نفخر بها أمام عوالم الفراعنة والأهرامات، وأسوار الصين، وبرج أيفل.

نهرب إلى ساحات المتاحف القديمة، نسخر من الوجوه الصخرية المحفورة التي تقف في وجهينا باعتداد زائف. نتذكر الطفولة والبرد والأنوف التي أحرقها المخاط الشتوي الذي لا يتوقف. لم تكن تفاصيل المدينة قد فقدت طعمها بعد. نركض، ونتقولين. غن. يجب أن نغني حتى يلهب الصباح البارد رئتينا. نضع اليد في اليد. والقلب على القلب. والفرحة في الفرحة ونغني بأقصى طاقتنا.

لا تي.. لاتي.. لندلو..

بابا اشرا لي سروالو

لاتي.. لاتي.. لندلو..

خويا شرالي ساندلو.

غن. عن يا بارد القلب. غن ولا تتوقف أبداً. يتكسر الماء تحت نعالنا المطاطية. نصاب بهستريا الجنون والسعادة المفرطة. الأمطار تتلون بفرح عيوننا المتقدة التي تحمل سخرية قصوى من تفاهات الدنيا. غن. قلت لكَ غنّ حتى يصمت الجميع. فحين تسكت أنتَ، ستهاجمك العيون الزجاجية والسكاكين التي تراك ولا تلمح ظلها. والآن. ماذا بعد الآن؟ نفس الفرحة المخبأة بين الضلوع، تكنس بشقاوة مؤلمة، وتنكس رأسها مثل راية مهزومة. مريم سحب من يديها الناعمتين كراس الأعمال المنزلية والمنشورات الوطنية، والكتب الجامعية المقررة وطردت تتنفس ثاني أكسيد الكاربون في الشوارع الممتدة من الرأس حتى أسفل القلب. تعلمت مريم كيف تقرأ حياتها خارج أسوار الفولاذ. في وجهها سمة المقتولين الذين شبهوا للناس أنهم قتلوا. مريم الوديعة تدري ولا تدري أن الأشياء الغامضة فيها انتحرت كهذه الظلمة التي يطاردها وحش بري بعين واحدة، مدججا بالخراب.

ـ فاوست حبيبي؟ بدأت تهذي يا ولد فاطنة الهجالة.

ـ لا شيء يفوتك. مرة أخرى أنت يا سفيان الجزويتي. أشعر بك الآن تتلصص علي وتتعقب كل أخباري. أراك. تضع اللاسلكي في أذنيك. تتحسس عينيك. ترفض أن تنام حتى لا يفوتك شيء من المهزلة. ثم تتخبأ وراء أكياس الرمل الجافة، تخرج القلم والكراسة الضخمة وتكتب. على فكرة، خطك جميل جداً. مثل حرف المطابع تماماً.

يتحرك في دماغي. يحسب الأوقات التي قضاها محجوزاً بين تلافيف المخ والكريات الحمراء، على رؤوس أصابعه. يتحسس الفتحة التي بدماغي برأس مسدسه. لقد انسدت بفعل الزمن. مر على ذلك اليوم تاريخ يقاس بحد السيف وشفرة المقصلة.

ـ يا صاحبي الزين، لم أكن أعلم أنك شاعر إلى هذه الدرجة.

- أتظن كل الناس مثلك؟ فارغون من الداخل مثل قصب الوديان؟ راك غالط يا السي سفيان.

سفيان الجزويتي. أنا الذي سميته هكذا. حُشر بدماغي يوم سُحبت من مخزن الدواليب الذي كنت أتخبأ فيه مع الزهراء الفولونطارية وقادونا إلى أقرب حفرة في المدينة.

وجه سفيان الجزويتي قميء جداً. يشبه وجه الرجل الذي فاجأني عاريا في أحد فنادق المدينة مع مريم التي بدأت الشوارع المتواطئة تختطفها مني بقسوة زائدة. كنا في ذلك اليوم عائدين من أحد المطاعم المتواضعة. قلت لها أحبك وفي حاجة ماسة إلى قلبك ودفئك. قالت أنا مثلك ولكنك دائماً تسبقني إلى الأشياء الجميلة. مذعورة من تفاصيل الشوارع التي لا شغل لها إلا الناس وأحوالهم الخاصة. لنذهب وطز في البقية. حين تنزل المقصلة لن تجد الرقبة المهيأة للموت وقتا للاعتذار. كل شيء بدأ عندما اقتحمت الظل وخواءات المدينة، قلتُ لكِ ونحن نلتقي على حافة البحر كالعادة. اليوم سأدعوك إلى مطعم إغريقي متواضع وجميل وعلى مشروب الآلهة: النكتار NECTAR. سنخرج لأول مرة من روائح المقليات التونسية والكسكس البلدي. ضحكتِ بطفولة. وانتهى بنا المطاف في نزل سيدي الهواري. اختلط الخجل بالخوف. هذه الأشياء نمارسها للمرة الثانية. في المرة الأولى حين ذهبت أمي إلى الحمام وفعلت كل ما بوسعي لأبدو مريضا وغير قادر على تحمل الحرارة ونجحت لدرجة أن أمي التي لا تضحي بحمامها الأسبوعي مهما كانت الظروف، اقترحت البقاء بجانبي قبل أن تصر عليها خالتي فاطمة الطيابة للذهاب معها وتؤكد لها أن وضعي لم يكن سيئا إلى درجة عدم الذهاب إلى الحمام. لأول مرة أكتشف جسد مريم. كان خليطاً من النور والنعومة والغيوم. ولأول مرة أكتشف أن خيالاتي باتجاه مريم كانت محدودة. فقد حببتني فيما كان يبدو محرماً ولا أخلاقياً ومخيفاً. لم تزلزل الأرض ولم يتضرر المجتمع المرتاح داخل يقينياته وأوهامه المفرطة ولكننا ازددنا التصاقاً ببعضنا البعض.

في السيارة، ونحن نهم بالعودة إلى حافة البحر تاركين البيت وبقايا الفرحة الخجولة، قالت مريم:

ـ خائفة. وحياتك خائفة.

ـ من ماذا. ألم تكوني سعيدة معي؟

ـ أسعد امرأة في الدنيا، كنت. لكن شيئاً غامضاً يقهر داخلي.

ـ هذا يؤذيني. لم أفلح في جعلك تنسين بؤس الخوف. عيون صالح ولد لخضر لصنامي تتبعك حتى هذا المكان.

ـ ليس في نيتي أن أنغص عليك متعة اللحظة. في حاجة فقط إلى دفء قلبك وإلى تفهمك، فأنا مريضة بهذا الرجل.

لا حق له عليك. صحيح أنه يرفض تطليقك، لكنكما افترقتما. كره منك وكرهت ظله. أنا أحبك وأنت تمتلكين حدود حريتك. لم تكوني هكذا حينما كنا داخل المطعم. كل شيء فيك كان مضاء. كانت السماء رائعة بلونها البنفسجي. ولم نكن قادرين على مقاومة لحظة السكر بـ NECTAR، فقد ظلت تتخبأ بخجل وسط الدماغ. سفيان الجزويتي سلم بهزيمته. عوّج رقبته ونام مفرجاً عن أسنان صفراء كعظام الموتى. في الطريق إلى نزل سيدي الهواري، شعرت بأن الأرض كانت عاجزة عن استيعاب الفرحة التي لا تقاوم. لكن عند الخروج، حين غادرنا النزل تحت عيون القزم الذي يشبه الشرطي الذي سكن دماغي، سفيان الجزويتي، كل شيء تغير بسرعة. وجه المدينة صار أزرق مثل وجه ميت مر على وفاته أكثر من شهر والشوارع ضاقت حتى صارت خانقة.

أترنح، أحاول أن أقف باستقامة وأن لا أستسلم للموت بسهولة. أتدحرج في الشارع الخلفي. تعود إلي شقاوة الجرح والسكينة التي هتكت ألياف الظهر واستقر رأسها بين الضلوع. يجب أن أصل إلى صديقي حميدو قبل أن أسقط على وجهي وتمزق الذئاب التي تنام في حفر المدينة جلدي ولحمي.

شعرت فجأة بسفيان الجزويتي يمسح ذقنه الطويل الذي لم يحلقه منذ أن أدخِل إلى دماغي بالقوة. يحك رأسه الذي يشبه في استدارته بطيخة. يخرج أنفه بذعر من وراء المتاريس الرملية التي صنعها لنفسه خوفاً من حرب وهمية أشنها عليه.

ـ وأنت! ما الذي أتى بك إلى هذه البلاد؟

ـ مجرد رغبة. كنت أنوي أن أواصل دراستي وأبحث عن حبي، صديقتي مريم التي هربت من رداءة صالح ولد لخضر لصنامي ومن سخافات المدينة التي لم يعد بها شيء يشبه المدينة.

ـ أنت دائماً تراوغ. لماذا لا تقول خوفك من الموت هو الذي أبعدك وجبنك الكبير في مواجهة واقع الأمر.

ـ هل هناك موت أقسى من أن يوضع شرطي في دماغك من طراز سفيان الجزويتي؟

ـ أنا لست شرطيا. أنا موظف يقوم بواجبه على أحسن وجه.

ـ عذرا. لنقل إنك رجل مكلف بالحفاظ على أمن الدولة وسلامة دماغي من التلف السياسي ومن محاولات الأوباش التخريبية.

ـ هذا كلام معقول، يمكن قبوله.

عيون صالح ولد لخضر لصنامي مخزية. تتعبك حتى الأماكن الحميمية. كان يجب أن نملأ البوقال بالأكسجين، وننام فيه حتى تمر العاصفة، أو ننتحر بطريقة الساموراي قبل أن تغوص على ظهورنا سكاكين بليدة مثل عيون أصحابها.

التقينا حزينين. وحين اقترفنا. كنا أكثر حزناً. كنتُ وحيداً ومنكسراً وكنتِ متعبة يا مريم *يا ودعة مشتتة سبعة*، كما كانت تسميك أمك. خرجت من موجة تكسرت على صخور الشط. سقط أخوتك السبعة على مشارف البلدة في الحرب الضروس التي أكلت أحلامهم. زوجة أبيك، التي فتحت رجليها لعمك بعد أن انتحر الوالد على طريقة الساموراي وزج بنفسه داخل قرعة نبيذ فارغة ثم سدها

على نفسه حتى الموت. بدل أن تلوح زوجة أبيك لاخوتك السبعة بالمغزل يوم خرجتِ من شقوق الموجة الهاربة، لوحت بالمنجل. قالوا الثامن سيكون فأل شؤم. ظنوك طفلاً آخر بينما كانت عيونهم المنتظرة تحلم بطفلة تملأ عليهم خرائب الفراغ. فهجَّ الجميع نحو القفار والصحاري وخلاء الدنيا حتى لا يروا ثامنهم.

لم يبق الآن إلا صمت المدينة والضباب وهذه الأرياح الباردة التي تكنس الشوارع بعنف يزداد كلما تقدمتُ أكثر إلى الأمام.

القلم والقداحة.

تحسستهما. عندما يفاجئنا الموت في أقل الزوايا انتظاراً، تمر الأشياء التي نحب بسرعة يصبح من الصعب معها التوقف طويلاً عند مشتهياتنا الصغيرة والضائعة. القلم والقداحة ما يزالان في الجيب الداخلي. هدية مريم في آخر أعياد ميلادي التي قليلاً ما أتذكرها. كانت مريم طيبة كضباب هذه المدينة التي كلما شعرت بالوحدة، لفها واحتضنها كعاشق أسطوري.

عندما فاجأتني مريم في ذلك المساء البارد بهديتها سألتني سؤالاً صغيراً أرقني، تفرع إلى أسئلة كثيرة ثم إلى صمت لم أجد وسيلة لاختراقه.

ـ هل أنت مرتاح؟

ـ معك، نعم.

ـ أنت تعرف ليس هذا سؤالي.

ـ لم أكن أعلم أني مريض بتلك الأرض البعيدة إلى هذا الحد. أشعر بالرغبة القصوى للعودة. لا شيء أجلب للألم مثل غياب التربة التي كبرنا عليها وصنعنا ألعابنا منها. قلق. لكني أعرف مسبقا أن العودة صعبة.

ـ والبقاء هنا داخل هذه العزلة أصعب.

بعد أيام، فاجأتِني ببطاقات العودة. من يومها وأنا أعد الأيام المتبقية على رؤوس أصابعي مثل طفل صغير الذي وعد بلعبة.

- أنت رائعة يا مريم.

- قلبك هو الذي يقول هذا. أنا كذلك تعبت.

قبلتك. استحضرت فجأة البلدة البعيدة المسيجة بالسدرة وحبات النبق والمدينة الكبيرة التي تتجشأ من التخمة وفي لحظات الاستراحة تنقي أسنانها المسوسة بعظام الموتى. أمي. تذكرت أمي، فاطنة الهجالة التي قرقت علي مثل فرخ البط الوحيد وبقيت حتى تخرمت كالحيطان الأثرية القديمة. تذكرت طفولتي الأولى التي لم أعرفها لأن الأهل والجيران يقولون أني نزلت بحذاء، أحزم خصري بزنار قديم. في يدي رفش وفأس. جريت بعد صرخة الولادة الأولى إلى الحقل وبدأت أحفر الأرض الميتة، وفي المساء أخذت أتدرب على أحاديث شيوخ البلدة. تذكرت كذلك مغامرات جدي الكبير دون كيشوت الله يرحمه ويوسع عليه، وهو يخوض حرب المصير ضد الجزويتيين. صال وجال وعرف الرجال، لكنه عاد إلى الناس الطيبين ليموت في حجرهم ويتبخر كالحلم الذي لم يمهل عيوننا للتدقيق في تفاصيله.

قبلتك مرة أخرى. كلما قبلتك ازددت جوعاً إليك.

- هل من حقنا أن نشتاق إلى مدينة تقتلنا وتحاول اليوم أن تنسانا؟ ماذا تساوي مدينة ترفضك وتستقبل في فراش العز قاتليها؟

ها.. ها.. ها..

من أين تأتي هذه القهقهات المخيفة. إني أعرفها جيداً. قهقهاتهم التي سكنت الدماغ بصحبة السارجان المنحوس.

أصواتهم تصبح الآن واضحة.

«- يا ولد العطاية. في الاتحاد الطلابي، وتكتب شعراً معادياً وتطالبنا بالرحمة والشفقة عليك. كل الزبل الآن يا وحد الفرخ».

بعد حادثة الجامعة، ومخزن الإطارات المسروقة، والحفرة السوداء، كفوا عن إزعاجي. الكارثة الوحيدة هي وجود سفيان الجزويتي في مكان لا أتحمل وجوده فيه. حتى لحظة صياغة كتاباتي، يواجهني معلناً حربه القاسية ضدي. يقوس عينه اليمنى مثلما يفعل كولمبو ويبدأ في تفحص جملي كلمة كلمة. وجوده وحده يقرفني، أنفاسه الكريهة تدفعني في نهاية المطاف إلى تمزيق كل ما أكتبه حتى أتخلص من ظله. يجب أن أعود وأبدأ حرب الفولاذ ضده حتى يستحي على حاله ويغادر دماغي وخلاياي الدموية. علي أن أدرس نقاط ضعفه لأتمكن من تدميره أو على الأقل إخراجه مني.

حين سألته لماذا يقوس عينه الزجاجية اليمنى مثل كولمبو رد علي بعنف:

ـ لي شخصيتي يا صديقي فاوست. أنا لا أعرف هذا الكولامبو الذي تتحدث عنه. هذه صفاتي نحتها من تجربتي الخاصة.

ـ أنا أتحدث عن شبه جسدي لا أكثر.

ـ أعرفك وأعرف أسلوبكم. معادون للوطن في كل شيء، حتى في تنفسكم.

ـ ولكنك لست الوطن. مجرد سارجان في خدمة من هو أكبر منه. عليك أن تقبل بوضعك.

ـ ها قد بدأت عداوتك للوطن تكشر عن أنيابها. احذر يا فاوست من العواقب. أنا لا أطلب روحك لأني لا أحتاجها، أطلب طول بقائك فهو أثمن بالنسبة لي.

في المنعطف الخلفي من الشارع الرابع، تلمست ورقة الدعوة مرة أخرى. كانت مكرفسة ومليئة بعرق الكف اليمنى. تحسستها أكثر. شعرت بنعومتها الخادعة، التي لا أتحملها. *[HmHhh الرجاء حضور الجلسة القضائية القادمة 19../5/1. الحضور إجباري حتى لا تتخذ إجراءات قضائية صارمة ضدكم. شكرا.]*

من يتذكر هذا اللون الداكن الذي يدخل عبر مناخير الأنوف التي صارت تتشمَّم كل شيء فاسد في حيطان هذه المدينة التي شاخت قبل غزوات الروم والقرطاجيين والوندال والإسبان *(أنا في الواقع أستثني جدي الرائع دون كيشوت من هذه النزعة الاستعمارية)* الأتراك والإفرنج، وبني كلبون *(إن حقبة بني كلبون هي من أصعب الحقب، لأن الوجوه الكئيبة والقتلة والسفاكين ينبتون من تحت أرجل المارة كنباتات الفطر فلا تعرف عدوك من صديقك)*.

من يتذكر هذا اللون الداكن. إنه يشبه قتامة آخر يوم من طمث النساء الفاسد. أو قيئا تملَّس حتى اختلط مع ألوان البلاط الحائلة. لا شيء أستطيع الآن تذكره بجدية كاملة. والأكثر من هذا كله هو أنني أفضل أن لا أستعيد ذلك بتاتاً.

- ها هو ضعفك يتبدَّى للعيان يا فاوست. أنت لا تعرف حتى كيف تخبئ كرهك لأرضك ولبلدك الذي ضحت من أجله قوافل الشهداء. اشتر ذاكرة من الأسواق الشعبية أفضل لك.

- أنت تستفز راحتي يا سفيان.

- لماذا لا تقول بكل صراحة أنك خائف وجبان ومحدود التفكير ولا تبدع إلا عندما يتعلق الأمر بعداوتك لأرضك ووطنك.

- أنت هو أنت تتصيد كل اللحظات لتسميم الجو علي. دائماً مثلما عرفتك لأول مرة حيث شق دماغي ودخلت بخبثك. السارجان سفيان الجزويتي. تلازمني منذ ذلك اليوم، منذ ذلك الزمن البعيد، حين وقفت تتأملني، وأنا موضوع على طاولة مدببة. أعض على ركبتي اليمنى من الألم الحاد. كنت غارقاً في الدم من الرأس حتى أخمص القدم. دخلتَ مع الشروخ وجروحات الرأس بكل عفنك ورداءة لباسك المموه المضحك الذي يشبه لباس المظليين. في البداية كنتَ حاداً وبعدها صرتَ تحاورني بهدوء أعصاب من حين لآخر. وتحاول أن تقلد جدي دون كيشوت لكنك عاجز عن ذلك. الجزويتية وطرافة جدي تقعان على طرفي نقيض. شاطر في تقديم

النصائح وحرمان أحد أفضل أسلافي من ابتهاجه الأكبر. صمتك أحياناً يزعجني، لكن استفزازك يؤلمني أكثر. أمنيتي الوحيدة أن أشاهدك تخرج بكل أسلحتك قبل أن يسلخ جلدي.

- أعرف جيداً تفكيرك.

- العكس يفاجئني. كيف لا وأنت في أدق تلافيف الدماغ.

- فاوست؟ يا عيوني وروحي؟ كن صريحاً ولو مرة واحدة في حياتك. أنت تشعر أنك اشتقت إلى تربتك وأنه آن الأوان لأن تعود إلى أرضك الطيبة. هذا ظاهر تصوراتك، لكنك عاجز عن مصارحة نفسك وأنك عائد لأنك أدركت فشلك متأخراً. قلها فأنا بك منك.

- صحيح يا السارجان العزيز. أفكارك قوية تتجاوز أحياناً دائرة من وضعوك هنا، في هذا المكان بالذات من رأسي.اللغة التي بيننا مفقودة وميتة. إني أشعر حقا أن الرئة الوحيدة التي أتنفس بها، تركتها ورائي هناك. وهاأنذا أشعر حقاً بالوحدة القاتلة مع مريم ووجه أختها الإسمنتي الذي حفرته ثقوب مرض الجذام، ووداعة زوجها المقعد الذي نصحه الطبيب بأن لا ينزع ضمادات عينيه إلا بعد عشر سنوات. أول رجل صادفته في البلاد البعيدة، فضت بكارته ثم تزوجته، من يومها أصبح الناس يرتعدون من حضورها. اقترنت بهذا الرجل الغامض والمقعد، سنوات قبل أن يتهم بالخيانة الوطنية العظمى وتهربه خارج حدود الوطن، وهو يحفظ لها ذلك جيداً في صحوه، لأنه عندما يصاب بنوباته المزمنة، يعض على كل شيء يصادفه في طريقه كالكلب المسعور.

الرجل المعقد لا يتذكرها إلا للنوم والأكل والتلذذ بالتبول حين يوضع على القصرية ويدخل عالم الخيالات من صوت النساء. يقول أنه يعشق صوتك. يتخيلك. يعريك من لباسك ويقشرك كالبرتقالة، بعدها يبدأ في ممارسة العملية الكريهة، العادة السرية، التي ينهيها دائماً ببصقته المعهودة المملوءة مواد لزجة ومخاطية ممزوجة بخيوط الدم.

ـ آلو. نعم. أسمعك خمسة على خمسة. Cinq sur cinq Patron. هو الآن في حالة شبه طبيعية. يريد العودة. كذابون يا سيدي، يتباكون على الوطن وهم أول من يجهز عليه. الرحمة هربت من قلوبهم. يجب شنقهم في الوقت المناسب.

سفيان! أو ربما الشيطان أحسن. ما أكبر صبرك في تتبع التفاهات التي لا تقدم ولا تؤخر. جهاز اللاسلكي لا يبرح أذنيك. تنتظر الأمر بتفجير هذا الدماغ الذي يزعجك في أحيانٍ كثيرة. كل الإشارات التي تلتقطها لا ترضي فضولك، تريد دائماً مزيداً من الموت والدمار. في الأيام الأولى أخافتني صراحتك التي كانت تشبه ضعفك إلى حد بعيد وأنت تتحدث عن برودك الجنسي وعن زوجتك التي طلقتك.

لست أدري، لماذا في هذه اللحظة بالذات تنتابني الرغبة الكبرى لتذكر أمجاد الأسلاف، دون كيشوت وخازوق وجدي قدور ولد برمضان. أمي فاطنة الهجالة تلح على طيبتهم بينما ألح على العكس اللهم بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة. أياديهم ما تزال تعبق بالدم. تختلط فيهم الشجاعة بالرغبة القصوى لتسميد الأرض بالجماجم والعظام النخرة. أكبرهم هرب يوم سقوط غرناطة على متن قارب ثقيل أكلت نصفه حوته عمياء ونجا بأعجوبة ليجد نفسه فجأة في بلدة لا يعرفها. كان يحب التاريخ، وهو الذي أورثني الرغبة المجنونة للكتابة. أوجههم ناتئة مثل النباتات القزمة. أيادي ورثاء أجدادي القتلة كانت وراء ذلك الشتاء القاسي. الزهراء الفولونطارية التي أخرجوا رحمها بقضيب دخل صدئا خرج أحمر. أمي لا تعرف إلا ما تشتهي معرفته من تاريخهم. تقول بفخر يفجر صفاء عينيها: أحد أسلافك الكثيرين في حربه الضروس ضد أعدائه، أقسم أن لا يوقف القتل حتى يصل الدم ركاب الخيل. قتلوا خطأ ابنته الوحيدة وعروا صدرها للشمس. حين علم بالخبر، لم يتساءل مطلقاً. جرد سيفه. ركب البيداء فأتى على نصف القبيلة وعلى كل البنات اللواتي لهن نفس سن ابنته. ولم يوقف حربه

الضروس إلى أن اختلط الدم بمياه الأمطار التي وصلت حتى ركاب الخيل. أحمرٌ كل شيء قالوا له: يا سيدنا الكبير، الدم يغطي الركاب كما أقسمت، هلا أوقفت هذه الحرب القاسية؟ أوقفها، لكن هذا لم يمنعه من قطع رأس الصبي الذي نبهه. يقولون، أنه وهو عائد، أكل صبياً حياً وبقر بطن بقرته واحتفظ بعيونه في جيبه وجرجر عظامه وراء عوده. عيون جدي الدموي كانت ناراً، إذا أثير أحرق الأخضر واليابس.

الضباب الآن يتصاعد بارداً من عيني، يتذرذر على المدينة الخالية رويداً، رويداً. يغطي وجهها المجهد مثل الذي يستقبل كفن الموت براحة لا تقاوم. الرذاذ الذي ينزل لم يكن كافياً لجعل الضباب ينكشح. تذكرت رغبتي الكبرى للجري تحت المطر الذي يعطي للموت لذة المشتهى. ما الذي جعلني أقبل بهذه اللحظة؟ كنت أظن قبل هذا الزمن، أن للموت طعم الملوحة والأشياء الصدئة وأحيان أخرى مذاق الأتربة الحمراء التي تنكسها الأرياح التي لا تأتي إلا لتغسل شوارع البلدة التي تنقرض مثل هيكل قديم، بهدوء مشبوه. في أحيان كثيرة، أجد مذاقاً آخر للموت يشبه بقايا الحروب الظالمة أو خزرة صالح ولد لخضر لصنامي، زوجك الأول. أقسم برأسك يا مريم أني رأيت عيونه وهي تركب معي نفس الطائرة التي حملتني إليك ذات خواء مزعج. وخفت أن أموت ولا أراك. هي نفس العيون التي شيعت رحيلك الأول بكراهية من وراء الأبواب السرية. وفي أغلب الأوقات أتلمس شبهاً مزعجاً بين الموت ورائحة المصاحف القرآنية الصفراء. ربما لأن الموت ارتبط معي منذ صيحتي الأولى، قبل أن أنزل إلى حقول البلدة، بآيات القرآن وبالصوامع التي كانت أختك تشتهيها. كانت تبدو لها متقنة الصنع. تنتصب بقوة ولا تعرف الارتخاء في كل الظروف. تنبعث منها رائحة الحشائش الربيعية والبصل والحلازين.

تحسست الجرح والألم الذي لم يتوقف لحظة واحدة. اتكأت

على الحائط بصعوبة كبيرة. سفيان الجزويتي كان منهمكاً في فقص القمل الذي يتجشأ في رأسه.

زاد ضباب المدينة التي كنت أقابلها مدججاً بالوحدة والفراغ والأوجه الغامضة التي سحبتها ورائي من البلاد البعيدة. لست أدري ما جدوى ذكر مفاخر الأسلاف الذين انقرضوا وانقطعت أخبارهم منذ الأزمنة الغابرة. الواقع أنا لا أشعر بالعطف تجاه أي واحد منهم ما عدا الرجل المبتهج والجد الذي يؤتي به من الزرائب ليضاجع زوجته التي كانت تكبره بأكثر من عشر سنوات ودون كيشوت دي لا مانشا الذي غمرته عذرية دولثينايا، الفلاحة التي تشبه القمحة. حين فاجأ فرحتها داخل الحقل، قال لها: أنا فارس طيب جداً. تأملت عينيه الصافيتين ثم ذابت بين أصابعه كقطعة حلوى ثمينة. كان يتعشق قيم البهجة وخوذة مبرينو التي استرجعها بعد سطوة كاسحة. الذين قاتلوه، كانوا يحملون الشتاء في أعينهم وأفكارهم. منعوه حتى من متعة الانتصار على الطواحين التي بدت لهم جوفاء مثل القلعة التي تخبِّئ تفاهتهم الجزويتية. بينما ظل يتأوه بين ذراعي حبيبته: آه يا دولثينايا لو تدرين! إننا قادرون بالرغم من كل شيء على بعث الحياة، وعيشها بامتلاء. لنحلم فقط. لنحلم يا *ودعة مشتتة سبعة*. يا مريم الوديعة. جدي يقول حتى في أقصى لحظات الخزن. الحلم أولاً والحلم ثانياً وتحقيق الفرح ثانياً. كل شيء ممكن. كارثة الجزويتيين الذين حاربهم جدي أنهم كانوا عاجزين عن الشعور بلذة الابتهاج بالأشياء الجميلة. جدي دون كيشوت، الله يرحمه ويوسع غليه في قبره الرخامي، أورثني إحدى حماقاته. حبه المجنون للتفاصيل الغامضة في المرأة.

آي! هذا الجرح المعقد لا يسهل حتى مهمة حكه بسهوله. علي أن أرمي يدي على ظهري وقبل أن أصله أكون قد عقرته. الألم هكذا، لا يسأل صاحبه وفي حالتي يزداد شقاوة كلما حاولت أن أفهم مصدره. ينخس كالإبرة الصدئة التي تفتتت داخل طراوة اللحم.

الآلام تتسع مع اتساع أوجه المدينة المغشوشة. يا الله، لو فقط عثرت عليها في السوق الشعبية لما حدث الذي حدث أو على لتغير مسار الموت هذا. رتبت كل شيء. كنا على الأقل حولنا قدر السكاكين الباردة إلى جهة إسمنت الحيطان. فكرتُ بتجميع الحقائب القديمة والأشياء المبعثرة والنزول إلى نزل المطار. هناك يشعر المرء بالأمان وبقرب الأرض التي سيدخلها بعد ليلة وعدة ساعات. لكن رب ذلك المفرق أضاع مني متعة الوصول إليك قبل دخول النصل في ظهري. مع أني لو رأيتك، لو شممت فقط رائحتك، لو لملمت شعرك الساحلي، وبقايا بياض الموجة التي تكسرت على الصخور الباردة قبل أن تنجبك بولادة قيصرية ثم تهرب مهزومة نحو شعلة النار التي أكلت اخوتك السبعة. ألم يكن بإمكان هذه التفاصيل أن تقودني إليك في ذلك الوقت المبكر، في السوق الشعبية؟ لكنك سلكت الطريق الثاني في مفترق الموت الذي كلفني النصل البارد على الظهر وسخرية الإعلانات الإشهارية.

صحيح أننا لم نكن متواعدين كعاشقين مذعورين من عيون نساء البلدة في أحد المقاهي المعزولة، لكن الذي حدث كان الفاصل بين الموت والحياة. قلتِ أنك خارجة لإتمام مشتريات السفر والنزول عند الكوافير و.. و.. و.. قلتِ ستتأخرين. وافترقنا. كل شيء كان هادئًا في ذلك الصباح. المدينة. وجوه الناس. الكائنات الحشرية. الأصوات. ذكرني الجو ببلدتنا المكسورة الضلع التي خرجت كالجرح من فم المخاطرات الصعبة التي لا تشعر بها إلا لحظة انفجارها بجدي قدور ولد برمضان، أحد السلالات التي أعقبت الهاربين من بلاد غرناطة. يدعونه قدور الموريسكي. شعلة البلدة المخفية. يلامس حد السيف فيصدأ. يمد يده إلى السكينة التي لا تبرح خصره، فيسقط الناس كالزبيب. يمد لسانه لنهد امرأة، فيذوب بين شفتيه كقطعة سكر. هكذا يحكى عنه، خصمه يهابه من بعيد. لكنه ذات يوم سقط بين أيدي من يتقنون الخديعة. وجد في طريقه يحيا بن أحمد ولد بو طيب، تقول أمي. كان منهمكاً مع أغنامه

وأغانيه البدوية بعدما طوع زوجته حليمة الفيل التي تكبره بعشر سنوات. الأنف في السماء، والمكحلة ساسبو لا تلمس الأرض. جاءه ابن أخيه يطأ على لسانه من كثرة الجري. سأله: خير يا ولد الناس؟ رد ابن أخيه : يحيا ولد بو طيب قال لك ألبسني البومنتل وطيب لي العشاء. رد جدي بعنف: الخامج، احسبني امرأته! إنها المرة الثالثة التي يتعدى فيها علي بهذا الشكل. دارت عينا قدور مثل نجمة هاربة فقدت دفء الحياة. شعر بنفسه يصغر حتى صار حشرة. اشتعلت التربة تحت قدميه. تحول كل شيء إلى شعلة تلهب عري قلبه. هاه نسيت يا خالي، تذكر ابن أخته، قال لي، قل لخالك يا ولد بنت امبارك. اسم أمي هو رديف الإهانة، صرخ قدور مرة أخرى. تفجر دماغه. وفجأة، قبل أن يلتفت ابن أخته كان قد انطفأ من الخيمة. في مقهى الحشايشي التقت عيناه بعيني يحيا ولد بوطيب. قال له: جئت ألبسك نعل البومنتل يا ولد الطحانة. حين التفت، شعر يحيا بالفرحة وقبل أن يرفع سكينته في وجه قدور، أفرغ فيه الساسبو المحشو بالبارود والرصاص، ثم عاد إلى فراشه لينام نوماً طويلاً قبل أن يسمع أن ابن أخته الذي أوصل له الخبر قُتِل. وحين قام من غفوته، قالوا الدم اختلط بين خيامنا. وجب أن نتصالح. كانت عيناه باردتين مملوءتين بالثقة والاطمئنان. قالوا له يا قدور الموريسكي. اتق الله. واحد منكم وواحد منا. فانكفأ على ساسبو ثم ضربه عرض الحائط. وحين انتهى من كسره دخل إلى الخيمة. طلب من حليمة الفيل أن تضع على صدره البورابح. في الليل حين بحثت عنه لم تجد إلا هيكلاً عظيماً ودوداً أزرق يتآكل في عينيه. قيل الكثير عنه لكن بعض العاقلين يقولون أنه وجد مذبوحاً في خيمته، غارقاً في بركة من الدم الحار. فقد ذبح وهو في غفوته المعهودة.

قدور، هو نفسه جدي الموريسكي الذي زوج من امرأة تكبره بعشر سنوات فاستطاع أن يطوعها مع الزمن مثل الأرض الجافة. كان صغيراً، حين يتأمل ذكره الضامر، يهرب، فيؤتي به من زريبة الأغنام. تتأمله ملياً وهو يتعرى بالقوة أمامها، فتغرق في نوبة

ضحك هسترية: يا ويلي. يا ويلي، جابوا لي زاوش يولدني. هو نفسه جدي الذي حين كبر لم تبرحه نزعته الطفولية. ظل يحب الأمطار والركض، والتمرغ في الثلوج التي تؤم البلدة مرة كل جيل.

آخ يا فاطمة الهجالة! لماذا كل هذه التفصيلات المزعجة. ما علاقتها بهذه الدماء التي غيبت عطر حبيبتي الذي التصق التصاق الليلة الأخيرة بجسمي. صدرها لم يبرحني إلا في الساعات القليلة التي تسربت من جرح الظهر. أمحت رائحة العطر، تحت ضراوة رائحة الخوف وذعر عيون الأطفال التي حالت من كثرة الأنين. لا. لا. مريم لم تكن منجمة ولم تعرف أني كنت بالسوق الشعبية أبحث عنها. ربما كانت الضربة الحادة موجهة في الأصل إليها. لا علاقة لها بهذه التفاصيل المقلقة. أنا لم أكن مجبراً. لكني شعرت بالخطر يترصد عينيها وكان يجب أن أخبرها قبل أن يرتشق هذا السم في نزيف الظهر. لو عثرت عليها في السوق الشعبية الكبرى لأنقذتها وأنقذت نفسي ولكني ضيعتها في المفترق. سحبني الطريق الخالي من رائحة ألبستها الوردية وشعرها الذي حنته السواحل. السوق بكاملها مسحت تربتها وأروقتها القديمة في ربع ساعة. لم أجدها. قالوا من هنا. ثم من هناك لا. لا. من هذه الجهة، من ناحية البريد المركزي. نزل الرماد على عيني المتعبين. كنت أريد أن أقول لمريم. لنهرب إلى نزل المطار. أو لنتحول إلى طفلين ونختبئ في بوقال الأكسجين مثلما فعل والدك. إنه هنا. وقد يفاجئنا في شكل شعاع أسود يدخل مع ثقب الباب (وجدت النافذة والباب مفتوحتين). قد يفاجئنا في الفراش في شكل طائرة حربية. إنهم قادرون على التحول مثل الكائنات الخرافية. اختلط في رأسي كل شيء. الناس. الوجوه. الشوارع. البارحة. اليوم. الضباب. الأشعة. البرد. لم يكن الذنب ذنبي. كان علي أن أسأل عنك في *مقهى القنديل*. لم يرك أحد. عادة تمرين من هناك تبحثين عني حين أتأخر. كان الأصدقاء وكنت مثقلاً بمتاعب الرحلة. ارتاح قليلاً. مريم امرأة وليست إبرة خياطة. طيب. كأس ثم أواصل الرحلة. هكذا قلت. لكني حين خرجت

كنت قد التهمت الخمارة بكاملها والساعة متأخرة. قالوا. الآن آن الأوان. قفزت. الساعة تجاوزت التاسعة والنصف. يجب أن أعود أيها الأصدقاء. عيون مريم تنتظر. لقد شربنا كأسها. شكراً سلاماً. قد أمر عليك ليلاً يا حميدو. أحتاجك. وخرجت أسحب ورائي عناء بكامله. التفت ورائي بذعر. تمتمت. ربما كانت آخر مرة أرى فيها الخمارة. آخر مرة أرى فيها هذه الخلائق المشوهة التي تفتخر بقصورها. ربما لن يكتب لي أبداً أن أمسح وجه الشرقي، الرسام، بعيني المتعبتين. الشرقي المغرم بمحاربة السلطة والقطاع الخاص من خلال بعثرته لورق المراحيض وعدم غسل أسنانه بالمعجونات المستوردة. يقول، وهو خير القائلين، إن هزيمة السلطة تبدأ من التفاصيل الصغيرة. تصوروا أنه لو أفسدنا ورق التنظيفات كله، وحاصرنا البضاعة المستوردة وبالخصوص معجون الأسنان، ماذا سيحدث؟ هو بدوره يتشبه بدون كيشوت. يختلف عنه في كون الأول كوسموبوليت، في حين أن الثاني بقي في حدود بلدته حتى الموت. الشرقي مصر على تحرير العالم قبل تحرير نفسه. تصوروا. يقول: شخصية تروتسكي الله يرحمه في قبره، استثنائية وعظيمة. فهم عقدنا وأزمتنا الحضارية. ودالي. عشق غالا Gala حتى فقد عقله أو ما تبقى منه. هو بدوره فهم جوهر الإنسان العربي. يجب تفجير القنبلة الموقوتة التي تنام في صدر كل حاكم على هذه الدويلات المملوكة التي وجد أصحابها فجأة أنفسهم يمارسون طقوس الحكم بانقلابات عسكرية. وصديقنا الآخر الذي يعشق زوايا المقاهي المظلمة، احتفل بديوانه المائة وعمره أقل من عشرين سنة. عداوته تقليدية بالشعراء الكبار. من يكون درويش؟ وحتى أراغون Aragon؟ نقل حتى مات عن بول أليار Paul Eluard. سرق شعره وحريته. ثم يصرخ بأعلى صوته، ومن يكون ماياكوفسكي؟ أصلاً ليس شاعراً. لقد صار كذلك بقرار من الكريملن. عندما عرف سر اللعبة، انتحر وحسناً فعل. وسعدي يوسف وغليفيك، وأستورياس وأدونيس، وعلال الفاسي والأمير عبد القادر؟ (لست أدري لماذا كان يصر على

حشر الشخصيتين الأخيرتين في قائمة من يتحداهم؟). نحن الذين صنعناهم. يقول بإصرار: التحدي يأتي بكثرة الإنتاج. وصديقي الوحيد في هذه المدينة حميدو، الذي تحول مخه من كثرة الشرب إلى بركة ماء تغرق فيها كل محاكم التفتيش المقدس. الجزويتيون لا يقربون كأسه لسبب واحد، هو أنه لا يشعر مطلقاً بوجودهم في كل حالاته. وأنا، وسط هذه الكومة المنقرضة من البشر، الشاعر المجنون الذي أقسم ألا ينشر إلا بعد أن يمشي على جثة سفيان. يقول أصدقاء *مقهى القنديل أني شاعر عظيم، لكني أشعر أحياناً من هزات عيونهم السريعة بأني مجرد تسلية تملأ عليهم خواء المقاهي. يا أخي أقرأ لنا آخر ما كتبت، يصرخون جماعياً. أنا لا أكتب. لا تتواضع أكثر من اللازم، يردون. شعرك قابل للنشر بشهادة رجل الدواوين المائة. كه. كه. كه. هو لا يستحي من أن يجلدنا كل مساء بديوان. لديه أكثر من مائة أخرى تحت الطبع. كانوا يريدون أن يسخروا من أحلام جدي دون كيشوت، لكنه كان يعيش ابتهاج الحياة حتى مس أعماق دولثينايا. عشقه لأتربة الكتب أدخله إلى جوهر الحياة التي عاشها فيما بعد حتى الموت.*

تصوروا أنه، حين أحرق الجزويتيون أحرفه الصفراء، صرخ في عيني سانشو بانسا المندهش الغارق مع حماره العجوز: يجب أن تنقذ الكتب قبل أن تنقذني يا سانشو.

- إنهم يحرقون الكتب يا سيدي.

- إنهم يحرقونني يا سانشو.

آه يا مريم اللطيفة.

كان يجب أن أحكي لك عن كل متاعبي، لكن الخوف تحجر في عيني والتهم لساني. صالح ولد لخضر لصنامي كان يريد أن يصل إلى عينيك قبلي. لكن حماقة جدي الأول الذي أقسم أن لا يوقف هذه الحرب حتى يصل الدم ركاب الخيل أبعدني عن تفاصيل المدنية، وربطني أكثر بصرختي الأولى. لم يكن يحكم البلدة غير قانون

الموت. والآن، أرسلوا لي هذه الورقة: *الرجاء..الحضور إجباري..إجراءات صارمة ضدكم*. يقول أحد أصدقائي المنسيين على أطراف المدينة البعيدة، بين السياسي والأخلاقي مسافة صغيرة، هي مسافة الذعر والخوف. صغيرة جداً، بمقاس المليمترات التي تفصل الكذبة البيضاء عن الكذبة المركبة. أحذر يا حبيبي من أن تتهم بتدبير انقلاب عسكري. ضحكت ونسيت كلامه ولم أتذكره إلا وأنا في الحفرة السوداء.

انزلقنا بعيداً بعيداً، إلى هذه المدينة التي تنام باكراً على أصداء الحرب وها هو ذا صالح ولد لخضر لصنامي يتبعنا بدباباته وطائراته الحربية، وأشيائه الأخرى التي تنام في حقيبته اليدوية. إذا كنتم تريدون الحقيقة أنا لم أره. لكن صديقي حميدو يقول أنه سمع بوجوده في هذه المدينة. ربما كان أصل القصة كذبة. ويحدث أن تتكرر الكذبة البيضاء لتصير في اليد الألف قنبلة ذرية. في المرة الماضية عملوها معي. قالوا كنا نمزج وأنت شاعر مجنون تضخم الأشياء ولكني وجدت التفاصيل مضخمة حينما سحبت من وراء الإطارات. لعنت حميدو الذي سمم سعادتي بالعودة إلى أرضي بهذا الخبر. المسكين لم يجد بداً من التمتمة: أنا قلت لك قبل أن يفاجئك في بيتك. سمعت الناس يحكون كلاماً كثيراً. من اليقين إلى مجرد كلمة سحبتها شوارع المدينة تدغدغ الأنف. سمعت وكان من الواجب علي أن أضعك على شفرة الخبر المزعج. قلت في خاطري وأنا أفكر فيك: آن الأوان لنضع أنفسنا في بوقال المحلول الأكسجيني. نتخبأ ونخبئ أفراخنا حتى تمر المقتلة. ولكن يده سبقتني إلى نفسي.

ضباب المدينة بدأ يستفز قدرتي على التمييز بين الأشياء. الضربة كانت جافة ولهذا لم أشعر بها جيداً إلا وهي تستقر بين حرارة الضلوع. كان رأسي مملوءاً بالشراب، والمشاعر والحب ورائحة عطر مريم الوديعة التي بدأت تنسحب من صدري بعدما احترقت كالجمرة.

ـ قلت لك أنه هنا. يجب أن أخبرك.

- أنت متعب يا حميدو. أجمل شيء نمارسه، أن نستكين لهذه الفرحة الضامرة وأن نفكر في تفاصيل الدنيا الصعبة. علي أن أجد مريم التي ذهبت إلى السوق الشعبية.

الخطأ كان في مفترق الطرق الذي يقود العيون إلى السوق الشعبية. لو فقط عثرت عليك يا مريم. كان كل شيء قد تغير تماماً. ولن يكون هناك مبرر لوجود هذه اللحظة وبهذا الشكل السافل وأنا أحبو على أربعة في شارع تافه طعنني من الخلف أكثر من مرة. كانت آخرها ضربة السكين الباردة والجافة. لم يبق أمامنا في هذا الوقت المتأخر، غير أن نفرض أنفسنا على أختك ذات الوجه الإسمنتي البشع وعلى زوجها المقعد. وصباحاً نركب أول طائرة متخصصة في تهجير العصافير من أعشاشها.

- لا تتكلم. لا يوجد شيء. حابين يجننوك.

- لكني أشعر به هنا. يتسرب من تحت الطاولات كالغازات السامة. رأيته البارحة في الحلم يذبحنا بصحبة جنوده وقتلته.

- لا يعرف البيت.

- يعرف أنفاسنا.

كان يجب أن أصرخ بأعلى صوتي قبل أن تسقط رقبتي: يجب أن نرحل عند أختك التي تثير ضحيتها قبل أن تلتهم بكارته وتستخرج من فرجها أسراره العسكرية. ليست أدري هل صرخت في وجهها. لست أدري هل أجابتني مريم المنكسرة بكل تلك التفاصيل العذبة التي سمعتها أو خيل لي أني سمعتها: الليلة لنا. إنها الأخيرة ومن العبث أن نتركها للقتلة.

- يجب أن نعيشها حتى الحرقة. وبعدها ليأت ذلك الدمار المخبأ وراء قساوة عيونهم.

- إنهم وصلوا هذه الأرض قبل أن نغادرها.

اللعنة. كح. كح. كح.

الدم بدأ يسيل من فمي. حمرته أصبحت آجورية مع هذا الضباب الذي طمس فجأة أحلام المدينة ويدخل الأنف مثل الآسيدات الحارقة. هذا الانقلاب يثير فضولي. أنا في الواقع أحب ضباب المدن وأمطارها. لكن حين تغيب مريم يتحول كل شيء إلى ما يشبه مرض السل.

سأسافر غدا. حميدو سيأخذني إلى المستشفى. لا أعتقد أن المسألة ستأخذ وقتا طويلاً لنزع السكين من جرح الظهر. بيني وبين حميدو الملح، والسكر، وحكايات العشق التي لا تحكى لأكثر من شخصين. ياه. الدعوة القضائية بدأت تتلون بهذا الدم الآجوري الذي نزل من فمي والآن بدأ ينزف من القلب. ليس مهماً. سأحضر الجلسة القضائية. أقف بشموخ جدي دون كيشوت. أصرخ في وجه القاضي: أحبها. قلت لك أني أحبها، أمامك وأمام صالح ولد لخضر لصنامي كل حيطان الدنيا، كسراها برأسيكما. يستعير القاضي المدني خزرة عسكرية. صديقي الذي أهملته المدينة. بين الأخلاقي والسياسي مسافة.

ـ من سألك يا وحد الكبّول عن أحلامك؟

ـ لكن يا سيدي لست كبّولاً، لي أب وأم.

ـ حدثنا عن نشاطك السياسي.

ـ لكني لست هنا بسبب تهمة سياسية.

ـ واش ضاع لي أنا. نشاطك السري إذن.

ـ ثمة خطأ في القضية يا سيدي. أنا متهم بعشق امرأة متزوجة طلبت الطلاق من زوجها، لكنه يا سيدي القاضي رفض تحريرها.

ـ مليح ما قتلكش وإلا كنت تروح فيها كما الكابويا. لو كنت مكانه لأعطيتني كل الأسباب القانونية لمحوك مثل الجرذ.

هكذا قالوا لي في الحفرة السوداء في هذه المدينة. أضافوا: أنت لا تحترم وطنك. يجب أن تتكلم قبل أن نغلق الملف نهائيا.

فرصتك للتراجع ما تزال قائمة. صرخت عبثاً: أنا لم أفعل شيئاً. لا علاقة لمريم الوديعة بهذه التفاصيل الوقحة. لا علاقة لها بهذا الغبار الذي ينتشر من المحاكم الوطنية إلى عيون الموتى. أنتم مخطئون يا سيدي. تدفعونني إلى شهادة مزيفة هي أكبر من قدرتي على التحمل.

مرة أخرى شددت قبضتي المرتجفة على الورقة القضائية التي صار لونها أرجواني. أمسكتها بشدة كقشة النجاة وأي نجاة؟

- بدأت تفهم جيداً يا عزيزي فاوست. من الأفضل لك ولنا جميعا أن تحتفظ بالدعوة بشكل جيد لتثبت حسن نيتك على الأقل.

- عيش، تشوف. سفيان الجزويتي، شيطاني الجميل يخاف علي!؟

- أخاف على البلاد من تهورك.

- تخاف على مواقعك. الحديث مع المعقد، خصوصاً إذا كان حاوياً ولا يوقف، مستحيل. المعقد جنسياً يحمل بذور الحقد والجريمة أكثر من كل الناس. كلهم يصلحون إلا هو. منبع حديثه، عجزه الكبير الذي لا دواء له. يا صاحبي، في هذه أنا عاجز عن إفادتك ولكن الطب وجد الوسائل التي تخفف وهنك.

- أنت تحل فمك بزاف. في يوم من الأيام نطيح لك ضروسك ونقلع لك عينيك ولسانك. فاوست؟ لم يبق لك ما تعيشه والأحسن لك أن تصمت قليلاً قبل أن تموت ميتة كلب.

- أعرف جيداً أنك خططت لموتي ولهذا لم يعد لدي ما أخسره. سأسمعك ما لم تسمعه من قبل عن نفسك يا شيطاني العزيز.

يستحسن يا سفيان أن تصمت ولا تزعج جرحي الغائر. حذاؤك الذي سرقته من جندي التهمته نيران الجبهة الحربية، يؤلمني في الرأس كوخز الإبر. لعبة البريطا، رشاشك الصغير الذي بين يديك يقززني أكثر مما يخيفني. أنت لا تستطيع أن تضغط على زناد اللعبة لأن الذين دفعوك، لا يرون ضرورة لفعل ذلك في الوقت الراهن.

تتمنى من قلبك الذي فقدته يوم طلقتك زوجتك في الأسبوع الأول، أن تتلقى إشارة لاسلكية تفرحك من أجل الانتهاء مني. وجودي وحده كاف لإزعاجك. إنك منضبط جداً مع أسيادك. تغمس رأسك بين المتاريس الرملية وتبدأ تعوي مثل الذئب. تتذكر زوجتك التي رفضتك، والقحبة التي وضعتك عند باب غرفتها عاريا واتهمتك بالنذالة والمرض. أزمتك جنسية يا رجل. أقبح البشر وأكثرهم حقداً على كل من يصادفونه سعيداً هم العاجزون جنسياً. التسلط لا يحل معضلاتك المزمنة أبداً.

ـ كم أريد أن أعرف شعورك يا سفيان وأنت تعذب الناس، هل تشعر فعلاً باللذة التي تنقصك في الحياة العادية.

ـ أنت تستفزني يا فاوست وتدفع بي إلى ارتكاب ما لا يحمد عقباه.

ـ وحياتك يا سيدي مجرد فضول.

ـ أنت تحشر أنفك في الأشياء البعيدة عنك. زد على ذلك، أنت سكران وأنا أرفض الخوض في هذه اللغة.

ـ إنها لغتك منذ أن ارتضيت القيام بهذا الدور.

بينما كنت أفكر في القصيدة الأخيرة التي منعني من إتمامها، كان يحك عينه الاصطناعية، ويعيد تركيب كلماتي، ويطلب من قحبة الشارع الخلفي أن تمنحه مؤخرتها لممارسة عاداته الحميمة.

آه يا سفيان الجزويتي. بيننا الدورة الدموية التي خربتها وهذا الدماغ البركاني. لو عثرت على مريم في المفترق المشؤوم لما وجدتني أحاور هذا القزم. التآكل الذي لا يستيقظ إلا ليعلن عن وجوده المتهالك في. لا يمكنك أن تفهم دفء البشر وآلام الناس الطيبين ومدى الخراب الذي تتسبب فيه. لكنك في النهاية أنت لست أكثر من سفيان الجزويتي.

أنه هنا. صالح ولد لخضر لصنامي. أقسم برأسك يا مريم

الطيبة أنه هنا. هناك من رآه مشمراً على ساعديه القصيرتين. في يده اليمنى سكين معقوفة الرأس.

أتحسس آلامي. أقف لحظات متمترساً على الأرصفة. لا شيء غير هذا السم وهذا الصديد الذي يتقاطر من بقايا السكين التي هتكت حجاب الضلوع.

حاولت أن أتكئ على الحائط القديم التي يوحي بوجوه الكائنات المتحفية التي كنا أنا ومريم نضحك من شموخها الزائف. التفت بصعوبة. واجهني وراء الضباب الكثيف إعلان طفل صغير، وهو يمارس العادة السرية علنية. يطوِّط عضوه النحيف مثل المطاط. كتبت تحت أليتيه العاريتين: *لا تكن صبياً. المرأة تحتاج إلى رجولتك قبل دفئك. إذا كنت ممن يعانون من البرود الجنسي، اتصل فوراً بوكالتنا في هذه المدينة، أو بأية وكالة فرعية. فستحصل مجاناً على كتالوج الثورة الجنسية. هيا لا تكن ثقيل الدم. نعتمد على صراحتك.* ما رأيك يا سفيان الجزويتي، ألا يهمك أمر مثل هذا؟ اختلطت ضحكة الطفل الساخرة بحدة الألم التي شعرت بها تنبعث من عضوه المسلول كنبتة جافة. يا ربك يا مريم. كان يجب أن تعرفي أن عينيه المتسختين نزلت إلى شوارع المدينة. لم أكن بحاجة إلى هدية عيد ميلاد. ولا أمي التي شخصت في عينيك برهة من الزمن ثم أحبتك أكثر مني. أفرغت فيك طفولتها التي دفنت تحت أكوام التبن، وصياحات نساء البلدة. طفولتها التي هربت من يديها الذابلتين كجسدك الذي انطفأ على صدري ولم يمهلني فرصة التخبؤ معك في بوقال الأكسجين ريثما تنتهي مهزلة صالح ولد لخضر لصنامي.

يا مريم الوديعة. سيصل إلينا. لقد هيأ كل زبانيته لاصطيادنا من كرش الأفعى أو من بوقال الأكسجين.

الفصل الثاني

عيون الموتى

العاشرة بالضبط.

في الطريق دندنت ولم أتخل عن أفراحي الصغيرة. أرى الآن مريم وهي معلقة على أطراف النافذة المطلة على ضجيج الشوارع الميتة وصخب الطرقات الواسعة. تقرأ كتاب زولا: Une page d'amour. من حين لآخر تحك عينيها وشفتيها اللتين صنعتا بإتقان كشفتي دمية صينية. شعرت بابتسامة غير عادية تختل على جدار القلب. هي نفس الابتسامة التي شعرت بها وأنا جالس بينك وبين الصديقة الغامضة التي بعثها للتوسط بينكما، وهي تقدم لك رسالته في محاولة يائسة لإقناعك. قلتِ لن أفتحها. قلتُ أقرئيها ولو من باب الفضول.

ـ عندما نصمم على الانتهاء من شيء، من الأفضل أن لا نلتفت إلى الوراء.

ـ لا أدري إذا كان رأيك صحيحاً.

ـ هذا الرجل لم يعد يثير حتى فضولي. أرجوك. لست لعبة ينزع أوصالها متى يشاء ويعيد تركيبها متى أراد ذلك.

هدد مرة أخرى برفع قضية ضدي وضدك. قال أنك تستفزينه وتستفزين ماضيه ووالده الذي هشمته شاحنة أبقار ويروج أنه يكون قد انتحر. أنت لا تحبينه ولا تبذلين أي مجهود لترميم ما جرى في الحفرة السوداء. أهله يحبون وداعتك، هكذا يقول. هو خامس

أشقياء لخضر لصنامي. يحب كلمة لصنامي، بدل لخضر البرادعي التي التصقت بوالده حتى صارت جزءاً من أسمه. الأول من أخوته. يملأ شعاع الشمس في أوعية صدئة ويكدس الغيم في أكياس القطن، ليبيعه إلى الشركات المتعددة الجنسيات. الثاني فقيه ملأ البلدة النائية بضجيج تمائم الحظ التي يهربها من بلاد السند والهند. والثالث، خرج يطلب العلم، فعاد بحرفة قبيحة (يخدم راقدْ ويخلص واقفْ) وآخر شرب من كتب العلم والغيب. يقول أنه قادر على تحويل الطاقة المائية إلى طاقة محركة. ويعوض محركات البنزين بمحركات تشتغل على الماء. وعد بالثورة الكبرى التي تزلزل العالم. وحين وُضعت كل الإمكانيات بين يديه قال أن ماء البلاد مالح وفيه الكثير من الكالكير. سافر في أول طائرة عمياء يجرب أحلامه في أمريكا قبل أن يعود إلى أرض الوطن ويفتح محلات لبيع الألبسة النسائية الداخلية. وهو. صالح ولد لخضر البرادعي الذي يكتب الرسائل لنفسه ليطمئن أن مريم ما تزال تمارس طقوس العيش الهادئ في قلبه. وحين يتذكر دفء كذبته، يشمر عن ذراعيه، ويصرخ بأعلى صوته. مثلما دمروني سأدمر ربهم. بكل الوسائل حتى، أحطها.

لست أدري هل هي نفس السيارة التي قادتنا إلى وجه أختك الإسمنتي أم غيرها. وجه السائق البليد، بدا لي تحت الضباب مشابهاً للوجه الذي سبق أن رأيته.

تأملت عينيك. انتابني حنين غريب إلى الأيام التي مضت. تؤنبينني كلما رجعت في آخر الليل. يا حبيبي أنت تؤذي نفسك بقسوة. تعود من شوارع الصمت، أكثر حزناً. تأخرت كثيراً يا حبيبي. سكرك يؤلمني ويؤلمني أكثر حبك للأشياء الجميلة. الذي يحب يجب أن يدفع الثمن غالياً. غالياً جداً. حبك يساوي رأيك. حبك فرحتك وقبرك.

ـ تأخرت علي كثيراً. شوقك يؤذيني.

ـ متعب من هذه البلاد..

ـ لا تتكلم. ارتح قليلاً. أحبك.

ابتسمتِ بإشراق تألقت له الشموس العشر التي كنا نحلم بها في خلوتنا وفي عرينا وهي تزقزق مثل العصافير تحت جلدنا. سحبت بقايا السيجارة التي كانت تتأرجح بخوف في فمي. وضعتها على نفاضة صغيرة لا تبرح موقعها أمام طاولة السرير حيث ينام كتاب زولا: Une page d'amour. تمددت.

ـ لا تقل شيئاً. حضرت لك فرحاً كبيراً، وعرس الليلة الأخيرة في هذه المدينة.

ـ يا مريم إني، أشعر بالفراغ وبعيون الناس تملأ جسدي مثل الأورام.

ـ يجب أن ترتاح. أنت مرهق.

غيابك يعذبني في هذه المدينة. بدأت أفواه البنادق التي تنام في جماجم الموتى تسحبك مني. لكن يا الله حالة السكر تتعمق في أكثر كلما لمست دفء عينيها. كان يجب أن أقول لها، اسمعي زوجك على أطراف المدينة. وجوده يهددنا. في حقيبته اليدوية الطائرات الحربية القادرة على النزول في فنجان قهوتك الصباحية. لساني كان قد انسحب مهزوماً إلى أغوار الحلق. لم أقل شيئاً. لم تخرج إلا كلمة أحبك، مصحوبة بنار صدرك وابتسامتك الهادئة التي شقت القلب. اخوتك السبعة يا مريم ماتوا في حرب بني كلبون حين اجتاحوا مدينتنا الطيبة، بالضبط يوم تكسرت الموجة الهاربة على صخور الشط. فرحتك التي أشيعها تعذبني. لم يبق في هذه البلدة التي تشبه المدينة الساحلية إلا أنا وأنت

ـ هه. هذه قبلة مني.

ـ مشتاق إلى هذه الفرحة. لقد ضيعت وقتاً كبيراً لأجدك.

ـ أنا هنا. لك وحدك. تعرف أن اليوم عيد ميلادك.

ـ أعرف وفرح أنك تذكرت هذا اليوم.

ـ جئتك بهدية جميلة.

ـ لم يكن ضرورياً.

ـ لا يهمك. هذا شأني.

ثم بدأتِ تمزقين العلبة الملفوفة في الورق الملون وتفتحين الخيوط الورقية.

ـ ذوقك رفيع يا بنت الساموراي العجيب.

ضحكتِ.

قلم. وقداحة. أجمل ما يمكن أن يهديه المرء لإنسان يعشقه. أدخلتهما عميقاً داخل القلب. ثم تمددتِ على صدري تبحثين عن بقايا المرافئ الرومانية المنكسرة.

ـ أعجبتك الهدية؟

ـ جداً. ذوقك جميل. سأتذكر هذا اليوم كثيراً قبل أن تغيبني الحفر بين أتربتها.

ـ هه يا سيدي. القلم تكتب به أروع قصيدة إلي وأنا التي سأنشرها بالرغم من سفيانك الجزويتي. والقداحة. القداحة. القداحة. ماذا نعمل بها؟ حين توصد الأبواب الحديدية في وجهك، أحرق بها الخيبة واليأس والحزن.

كنت أتمنى أن أجدك في مفترق السوق الشعبية ولكن عبثاً. قلتُ ربما نزلتِ بعد التسوق، عند إحدى صديقاتك وبعدها ذهبتِ نحو الحلاقة. وها أنت ذي هنا. على نفس الفراش الذي حوانا في أول أيامنا في هذه المدينة. قلت إنك لم تسبقيني بوقت كبير(الباب كان نصف مفتوح والنافذة يتسرب منها شعاع أسود).

مسدت على شعري. تيقظت طفولتي المهزومة ورائحة الدم التي كانت تنبعث من زاوية ما داخل البيت. غلالتك البيضاء التي ختمت

بنقاط سوداء. سواد عينيك الذي اتسع أكثر، وبياضهما الذي زاد نصاعة. تأملت وجهك من وراء غيوم لحظة السكر. شعرت بالنبوة المفقودة تعود إليك رويداً رويداً مع صعود الدم إلى وجهك الخمري الذي تقاتل من أجله ملوك العجم ورسخ الأساطير عنك وعن أخوتك السبعة وعن الموجة التي أنجبتك، في أدمغة الناس.

ـ آه يا مريم. أريد أن أقول لك.

ـ لا تقل شيئاً. قل أحبكِ وانتهى.

إنها المرة الوحيدة. التي تأخذين فيها هذا العمق بداخلي. مسدت على صدري بنعومة أظافرك. بدأت أكتشف أسرارك الوثنية التي ألهبت أحلام الآخرين. رأيت ابتسامتك الجميلة التي أشرقت بحزن كقمر شتوي. جمال أشيائك في فيض حزنها. مددت يدي إليك. تحركت بتثاقل بالرغم من شعوري برهافة جسمي. نمت على صدرك بطفولتي. فتحت قميصك عند الصدر. نزعت الصدرية. شعرت بدفء نهديك وبامتلائهما بين شفتي المرتعشتين. الحملة تدغدغ لساني. كان كل شيء جميلاً كهذه التفاصيل العفوية. كهذه الليلة الأخيرة. العرس. من قال أنها الليلة الخيرة. الحقائب كانت تتحرق شوقاً إلى التربة البعيدة. تنام بنصف عين في أحد زوايا الحجرة. لكن يجب أن لا أهزم فرصة هذه الليلة.

هل الموت عذب يا مريم؟ هل جربت أن تموتي ثم تستيقظين فجأة من الكابوس لتجدي نفسك تقبضين على الحياة بأسنانك ولسانك ويديك وفردتي حذائك؟ تصوري هذا الدم الذي يفور في الدماغ؟ درجة غليانه؟ لم يكن معنى الحياة عند أجدادي الآفلين أكثر من فرج يسفد كل ليلة وبعدها، حين يهرأ، يبحث عن غيره. زوجك يشبههم. ورث عنهم الطبيعة والدم. يحمل نزعة تدميرية تجاه المرأة العربية. يقول لا يمكنها إلا أن تكون قحبة ومسّاحة أحذية. قصته ترجع إلى فترة قديمة وبعيدة بعداً يضرب من السماء حتى صحراء الربع الخالي. أنا متأكد أنها أزمة امرأة. يجد سعادة كبيرة في

الافتخار بفتوحات جده من أبيه. كان تاجراً للإبل وحاكماً لجزء من رمل البلاد. أحب امرأة استعصت عليه وأقسم أن يضعها بين رجليه. أغراها بالمال وصولجانات الملوك والأمراء المقتولين. الشمس التي نزلت بين يديها قالت لها: من أجلك أحيك فساتين الأرامل. لا تتزوجي. قال هو لمعارفه: النساء هكذا. يمانعن لليلة وبعدها ينسين كل شيء. أغراها بذكره المقوس كحاجبيه المخيفين. تقيأت واشتهت فرحتها التي غيبتها أسوار الفولاذ. تزوجها بالقوة وفي اليوم السابع تركها بعد أن كان قد أكل نهدها الأيمن مثل الحيوان المفترس وتركها تموت بهدوء وهي منكفئة على جرحها. يقول صالح ولد لخصر لصنامي أن جده كان محقاً. لا شيء يسعد المرأة مثل الاحتقار والإهمال. أفعى، تغير جلدها عند الحاجة. القصة لم تنته عند هذا الحد. كانت طبيبة أعشاب تأتيها كل مساء تداويها في عزلتها وبعد ساعات تغادر البيت وتعود من حيث أتت. وبعد زمن الذي قيل لجدي، يقول صالح، أن زوجته سحاقية. تمارس فرحتها في خلوة القصر مع إحدى خادماتها. قال لا. المتهم مدان حتى تثبت براءته. يجب كشف الأمر قبل أن تكشفه الرعية. حين خلت زوجته بخادمتها، تزحلق هو كالظل من بين شقوق الحيطان الهرمة. رأى الخادمة قد تحولت إلى عشيق متنكر في زي امرأة. شاهدها على صدره وهي ترغي مثل موجة تكسرت على صخور شط المتوسط. تتلذذ بشعيرات صدره. كذَّب عينيه. شق الباب ودخل بكامل قصره. رآها مغموسة في الشوق الذي لا يقاوم، محترمة رتابة الذهاب والإياب والصعود والنزول. سمع صرختها القصوى وهي تغوص في حجر الرجل المتنكر ثم تغيب في غابة صدره كالدمية. مارس العادة السرية على قداسة المشهد قبل أن تحتل عيناه المخيفتان الحجرة بكاملها. قبل ذلك بلحظة وجيزة، هو نفسه لم يستطع ضبطها، رآها تغسل له ذكره ثم تقبله بعنف وتخبئه في شق السروال مثل كنز ثمين وتغلق عليه بإحكام. كانت هكذا تفعل كل ليلة قبل أن تنام عارية على صدره حتى الصباح. تفرَّس وجهه. أنت هو ولد

الحرام. راعي الطفولة الذي قاسمها الذعر والزيتون والجري وراء القطيع، والتخبؤ في البنايات التي هجرتها المدافع. يقول لها أحبك ويخاف أن يكون قد أخطأ. قطع عضوه ورأسه بيديه مثل طائر تحت رحمة يد فلاح خشنة. ثم أمر بدفنه على كرشه حتى لا ينبت له عضو ويخترق وداعة القبر. وتصيح الرعية بسخرية: هذا هو كنز الملكة التي اشتهت خادمتها. القبر وحده كان يزعجه. أما هي. كتفها بسلاسل الفولاذ وأدخلها في كومة شوك صدئ وانهال على صدرها كالكلب المسعور وهي تتقيأ وتصرخ باسم خادمتها. الغريب أنها لم تبك ولم تشعر بالألم. لحظة اللذة القصوى، قطع الحلمتين الموردتين ثم وضعهما في جيبه مثل قطع الحلوى الشعبية. ثم دفنها واقفة في حفرة عمقها ألف كيلومتر حتى لا تزعجه رائحة جسدها. يقولون أن ذلك حدث في بداية القرن الذي اجتاحت فيه رائحة النفط الأزقة العربية الضيقة، ومسك السيف والمارلبورو رقاب الناس وأحلامهم. من يومها اتخذ جده قراراً صارماً يلعن فيه النساء العربيات نساء أقل في الرتبة من الحيوان، فأخذ يستورد حسناوات السويد ويتصور معهن صورا بورنوغرافية. وبسبب الفضائح المتكررة قاطع جد زوجك حتى الحسناوات السويديات وصار يكتفي بالعادة السرية، حين تهاجمه سكاكين الرغبة. يقول: إنها أكثر العمليات سراً واختفاء. آه لو وجدت الذي سماها كذلك. يقول، كنت كافأته عن تصوره المسبق لأخطر مسائل الدولة والحكم حساسية. جميل هذا السر الذي يحمله جنون العادة السرية. العيب الوحيد هو أن شفاه الواحد لا تستطيع أن تلمس سر الذكورة وإلا لكنا استغنينا على صرعة 69 الغربية، نحن سادة الأرقام المعقوفة.

مسدت مريم على شعري وسط هذا الفيض من التشوه والخوف. شعرت بطعم الملوحة ينفذ إلى فمي. تلمست حرارة نهديها من جديد. صلابتهما عمقت الهوة التي تفصلني عن زوجها. كانت مثل حفرة نشفت وجفت وتحولت إلى فراغ بدون حد. يجب أن تعرف أن زوجها الأسبق هنا يحتل الأرض والسماء والهواء. المدينة ترتج

تحت ذعر حقيبته اليدوية المملوءة بالطائرات الحربية وكاسحات الجليد، والدبابات. وجوده ليس نكته. يقولون كذلك أنه يحمل منشاراً ومقلاة زيتها يغلي في أقصى الدرجات. يقسم أمام كل من تصادفه عيناه أنه سيقلينا أحياء ويشوي أعضاءنا أمام الملأ. تعاودني كلماته الأخيرة مثل السيف.

ـ مريم ما تزال في عنقي. أتركها. أنت تفسد أخلاقها.

ـ من الأفضل أن تقول هذا الكلام لزوجتك.

ـ أنت تقودها نحو الهلاك.

ـ أنا متعب. الأفضل لك أن تتركني وشأني.

ـ أنت دفعتني إلى هذا الوضع.

ـ مريم تكرهك لأنك فقدت وجهك وملامحك ولا علاقة لي بهذا الوضع. قدمت رقاب أصدقائك إلى الحفرة السوداء وقبضت الثمن عن ذلك.

ـ أخطاؤهم قادتهم إلى هذا الموت. أنت تحسدني في مريم.

ـ مريم... أنت تخبيء الحقيقة عن نفسك.

ـ المهم. لن تأخذها مني إلا ميتة.

ـ لن آخذها منك. مريم امرأة وليست شيئاً.

ـ طززززززززز. هذا الكلام سمعته بكري.

ينكفئ على نفسه. يتحول إلى فكرون ملون. يدخل قوقعته. في عينيه حقد وقماءة صعب تفسيرهما. ثم يترك نفسه يتكور على طول الشارع الممتد حتى الحفرة السوداء. يؤدي واجبه اليومي، يقدم قوائم أصدقائه للقتلة ثم يخرج متنكراً في هيئة رجل ثوري. كلما صادفنا في معبر ما داخل المدينة، يتمتم: يجب أن لا تفرحا كثيراً. ما زلت وراء لهاثكما المر. صالح ولد لخضر البرادعي كان طالباً في ذلك الزمن البعيد. حين يشاهد ضحكة مريم تنزلق بارتياح،

يحزن مستجدياً العطف من خزرات الناس. كنت أعشق في مريم رغبتها الكبيرة لمعرفة ما يدور تحت المدينة. ولماذا تتخبأ الشموس الجميلة ووراء الناس الطيبين خوف أن يقاد إلى الحفر المخيفة. ينزعج. تضحك عالياً على النكتة المتسربة من فم أحد الأصدقاء. قلت لك.

- يا الله قومي يا مريم. وراءنا شغل كبير.

يسرقها بعنف من جلستنا. تنظر بحزن. ثم تقوم. في الليل، يأمرها بالحد من تصرفاتها. أريدك أن تبقي على الحياد. الوضع ليس جيداً كما تعرفين. وهؤلاء الشيوعيون قادرون على الخروج من الشعرة. ومع الفجر الأول حين تقذفه إحدى سيارات الشرطة على أطراف الحرم الجامعي، يعتذر ويبرر:

- أصدقائي يخافون عليك وعلي من هذه العصابة التي تريد لنا كل السوء والشر.

- يا صالح أنت تضخم كل شيء. لا أحد يتمنى لك الشر.

- ما زلت صغيرة. لا تعرفينهم مثلما أعرفهم.

- أعرفهم مثلما تعرفهم.

- لقد اختاروا السياسة والسياسة تفقد الواحد عقله وقدراته على التمييز بين الخير والشر.

وعندما لا يجد منفذاً ويشعر أنه بدأ يفقد مريم، يتراجع قليلاً: أنتم تعرف. مريم أختكم. لكن يحدث معي أن أفكر بشكل غلط. الميتة التي ماتها أبي لم تكن مقنعة. الناس يقولون شاحنة. انتحاراً. وحين لا أجد أجوبة، أصب غضبي على مريم. المعذرة. ثم فجأة يتغير مرة أخرى. حين تأخذ مريم مني الجريدة السرية التي يتداولها جميع الأصدقاء، يسحبها منها ويأتيني بها، نافثاً أحقاده في وجهي. شكرا. لقد قرأتها وفهمت تفاصيلها.

- ما عليهش.

- عليه وإلا ما عليهش. أتركونا وشأننا.

مريم. وجهها يدفعني نحو المتاحف القديمة ومغاور الطفولة والحب الذي لويت رقابه في سن الورد. هو هنا يعبر المدينة جيئة وذهابا. وراءه الآلاف من خدمة الموت وسدنة كوابيسه. يقسم برأس الوجوه التي أرسلته أنه سينتهي في أقرب وقت ليعود بعدها من حيث أتى. لم يرث عن وفاة والده غير الشكوك والغموض المستمر. يتمنى من قلبه، أن يكتشف سر وفاته من خلال اصطياده لأفراح الآخرين وزرع المحيطات الباردة في أدمغتهم. شاحنة الأبقار لم تدسه أبداً. احتمال كبير أن يكون قد صفى نفسه بنفسه. نحن نحب الوطن. يقول في ثورته بعد أن غيّر وجهه، ونفخ عينيه واستبدل نظارتيه بغمازتين طبيتين. نكره الأفكار المستوردة. ليس هناك مكان إلا للذين يتفانون من أجل المصالح الكبرى للوطن. القانون فوق الجميع. سنذلكم يا أولاد القحبة. وإذا الحفر السوداء لم تستطع فعل فعلها، هناك طريق آخر لنقيئكم النار والأخبار. يتحسس مؤخرته برؤوس أظافره. هذه اللعبة تعلمها عندما دخل وخرج من الحفرة السوداء بسرعة. لم يقدم تنازلا سوى أنه قال كل ما كان يعرفه عن أصدقائه بمن فيهم مريم. مريم. قال لهم أن هذه الوثائق السرية ضبطتها معها. حين مسحت دم شفتيها من اللكمة الأولى، قالوا لها نحن نملك نفسك وليس سرك فقط. الرجل الذي يقاسمك نفس الفراش ويجدك باردة تجاهه قال كل شيء. زوجك. نحن ننفذ ما طلبه. حاولنا منعه من ذكر التفاصيل الخاصة التي لا تهم التحقيق. قال كرامة الوطن فوق الرغبة الذاتية. قبل أن تجيبي ارتسم دم الشفتين على الحائط المقابل. فجأة وأنت تتلمسين كدمات الوجه وتفرقين شعرك لرؤية ما خفي من الصورة القاتمة، رأيته يجوب أروقة الحفرة السوداء. صالح ولد لخضر البرادعي عينه. بصقت على الأرض، وقبل أن تغلقي شفتيك كانت الضربة الأخرى قد استقرت على الجبهة. بكيت دمعتين، ثم تمنيت لو تأتيك الموجة الهاربة التي تكسرت على الشط البارد لتندفني في رحمها من جديد. تذكرتِ يا مريم ودعة مشتتة سبعة. رجالك السبعة الذين التهمتهم تلال البلدة

وتلويحه المناجل الصدئة. زوجة الأب التي فضها عمك هي السبب. كان يجب أن تلوح بالمغزل ليعود أخوتك السبعة الذين اشتهوا بنتا. قالوا الثامن سيكون شؤماً. زوجة الأدب لم تكن تشم أمك فطومة. حين انتحر أبوك على طريقة الساموراي ودخل زجاجة الخمر الأخيرة، وحتى قبل أن يتحول إلى مفخرة وطنية، فتحت رجليها لعمك إلى أقصى ما يمكن وعزلتك أنت في جحرة صغيرة، أنت وأمك. حجرة كانت بمثابة مخزن لكل الأشياء الزائدة في هذا البيت المخيف. قبل أن تموت أمك وتكنسك عيونهم القاسية.

ماذا تريد من خوفك؟ العزلة؟ أنت فيها. الموت؟ يجانبك.

الدنيا هي هي. اختبئ. الزوارق تغرق بفعل العواصف ونحن نضيع بغلطة. بالزفت. بالزئبق الذي لا يرسو على مكان. كان يجب أن تتعلم أن تتدبر أمرك قبل أن تعيد المدينة عشق كهنتها. قبل أن تخلو من سكانها الطيبين. قبل أن ينتزع فرحتك الجزويتي المزور في وجه فارس القمر. قبل أن يمزق لحمك يا جدي دون كيشوت على أسوار قلعة الموت. قبل أن تطمس العيون التي لم تبق فيها إلا المحاجر الفارغة والحفر السوداء وبقايا الجماجم. أفواه عجزت عن الصراخ. قرود تتشعر وتكبر. وأنت. أنت أيها الهارب من الغور السحيق. هربتك الطيور إلى هنا. اقترب. شم رائحة الزفت وهي تطلع من حوضك. من تحت إبطيك. الذين حاربوك، شقوا الأرض ودفنوا فرحتك إلى الأبد. قالوا. هرب عدو الشعب. قلت لك لم أهرب يا سفيان البؤس. لم يعد لي هناك مكان. المكان يحفر على الحجر. عشقت حبيبتي اللطيفة وتبعتها. عشقت دراستي. عشقت وطني. وطنك في الآخرة. سنؤكلك التراب ونشربك الماء والصابون. يا أخي والله أنت زفت. أنت سفيان الجزويتي. أول ما يتغير الوضع سأقاضيك. أنت يا عمود الشواء تقاضيني؟ سنبولك في سروالك، لدينا الوسائل التي تجعلك تتكلم. مع ذلك سأعود إلى أرضي. سأعود. أعرف أنك ستعود لكن ما لا تعرفه هو أنك تستيقظ في أغلب الأحيان متأخراً.

ـ حبيبي، انس قليلاً ما يعذب الذاكرة.

ـ الأصداء تأكلني من الداخل. ربما هي بدايات الجنون.

ـ لا جنون سوى أنك تستعيد أشواقك المسروقة. أنا معك ولك بكلي. ضع قلبك بين يدي. عيناك معصيتي الكبرى وهروبك مني يؤذيني.

بحثت عنكِ كثيراً في هذه السماء العقيمة. هل تذكرين؟ رأس السنة هذا العام مر بحزن وبوحدة. كان قلبك منكمشاً. قلت لك أني أشعر وكأن هذه السنة هي سنتي الأخيرة. قلتِ:

ـ يجب أن يظل قلبك متسعاً لكل الهموم.

وحين شعرنا بأن فراغ المدينة يزداد اتساعاً، قلتِ، لننزل إلى الشوارع. ووسط أحد الأزقة الضيقة شاهدنا بالصدفة فلم *السقا مات*. في البيت لم ننم مع بعضنا البعض. انشطرنا إلى نصفين وأخذنا نفكر في الوجوه والتفاصيل التي صادفناها حتى الساعة الثانية عشرة ودقيقة حين فاجأتنا السنة الجديدة في عزلتنا المخيفة.

ـ ألم تسمعني؟ قلت لك أحبك.

ـ أحبك أكثر. لكن الجرح كبير يا مريم ويغيب سعادتي. لقد نجحوا في كسري.

ـ لنهرب إذن.

ـ لسنا لعنة هذه المدينة ولا مفخرتها الكبرى.

حين افترقنا في الفجر، نزلتُ إلى البريد. لم أجد شيئاً غير هذه الدعوة القضائية الملعونة. خيروني ولم يعطوني حرية التصرف. إجراءات صارمة ضدكم. شكراً. سأدمر الأخضر واليابس وبعدها سأنتحر إذا دعت الضرورة. علي وعلى أعدائي. هكذا يحكون عنه. في الواقع أنا لم أره. هذه ثاني مرة أسمع فيها بالخبر. المرة الأولى كانت كذبة جميلة، دغدغوا بها عقدهم. كل واحد، في الأخير، سحب

يده منها وتحولت أنا في الشوارع الخلفية الخالية، إلى مجنون يتسلق كالقرد الأشجار الأفريقية العالية، بحثا عن موزة وهمية. لكن هذه المرة لست أدري لماذا صدقت الحكاية من أولها إلى آخرها. في الشارع الذي كان يقطعني، التفت ورائي. لم أر شيئاً بالرغم من الاستفزازات المتكررة لسفيان الجزويتي. شعرت أني لم أبتعد كثيراً. لكن وجه مريم لم يبرحني أبداً. في الفراش تقاطعنا كنجمتين هاربتين في سماء فجة، عكرة، فارغة من أي معنى شعري. كانت حناجرنا جافة، يابسة مثل قصبات الوديان الميتة. لم أبتعد كثيراً عن الكشك القديم الذي يبيع كل شيء. الطفل الجالس على شيء غامض في صفحة الإعلانات، ويمارس العادة السرية، زادت ابتسامته الساخرة سواداً واتساعاً حتى شعرت به يعوي وهو يسحب ذكره بقوة إلى الأمام مقابل فرنكات يأخذها ثم ينزلق إلى الشارع ليبيع سجائر المارلبورو التي حكمت أفواه الناس زمناً طويلاً. الحروف الكبيرة مقرفة: *لا تكن صبيا. المرأة تحتاج إلى رجولتك قبل دفئك.. اتصل بوكالتنا..نعتمد على صراحتك*. بدأت الجمل تتضاءل شيئاً فشيئاً وتغيب تحت كثافة الضباب الذي تكدس حتى قطناً ثقيلاً. اللعنة.

كلما مشيت، زاد بيت صديقي حميدو بعيداً. تدحرجت بصعوبة كبيرة. جلست على الرصيف أشرب هواء لكني شعرت بمذاق غزل البنات يملأ فمي ملوحة مختلطة بالسكر. ربما كان دماً. تأملني عابر، أتذكر أنه المار الوحيد الذي اقتحم الشارع في تلك الساعة المتأخرة من الليل. ظنني سكران ضائع في الطرقات.

ـ مهابيل! يسكرون ثم ينتظرون من يأخذ بأيدهم. موتوا الله لا يرحمكم. اللِّي يديرها بيديه يفكها بسنيه.

ـ ... التحمّر وصل إلى هذه الدرجة؟

أتصور أني لم أقلها في أعماقي ولكن بصوت منكسر لأن الرجل زاد ركضه ولم يلتفت وراءه أبداً قبل أن يغيب بشكل نهائي عن

نظري. والغريب، بالرغم من الجرح الملعون، كنت أرى الأشياء بصفاء مؤلم: هذا الكشك الذي يبيع كل شيء، بائع الصحف اليومية الذي يغلق قبل أن تغيب المدينة، *مقهى القنديل* الذي لفظني على التاسعة والنصف ليلاً.

بدأت حبيبات الرذاذ تملأ دماغي.

إذن أنتِ مريم.

أنتِ مريم.

مريم.

اليوم الذي سرقناه من الرزنامة كان خارقاً وجميلاً. جلسنا في نهاية الفرحة، نتأمل المارة ونلف حذاءك الذي انفتح من تحت بفعل الأمطار. نضحك عالياً حتى ترغي من تحتنا المياه الليلية الملونة بفوانيس الشوارع. كان ما نفعله يبدو للعيون الشرسة غير مألوف.

ـ أغلق سحّابك يا وحد...

وضحكنا.

تذكرت بأني لم أشد السحاب وأنا أغادر مرحاض البار الخلفي الذي ينام على ظهر المدينة. زاد في المشهد الساخر، فقدك لكعب الحذاء. انزعجت، قلت لك. الليل ولن يراك حتى الله، امش براحة، بدون حذاء مثلا. مشينا طويلاً بعدما لففت حذاءك بخيط أخضر كان مرميا على أطراف الرصيف. حين انتبهت لنفسك في نهاية الشارع، ضحكت ملء قلبك.

ـ لهذا كنت أستغرب نظرة المارة.

ـ جدي دون كيشوت كان يلبس ترسانة من الحديد ولم ينزعج أبداً في حياته. كانت تهمه نفسه ولم يكن يهمه الآخرون.

ليس مهما. قومي، نجري، نتدحرج، نغرق في عمق هذه المدينة. نركض والعيون تمسح الأرض مسحاً. وجدت مطاطاً، لففته

على حذائك. ثم سلكاً رقيقاً. خيط قنب قديم. حزاماً مرمياً. نسينا أتعاب الطرقات. الأمطار كانت قد بدأت تزعجك رغم حبك لها. تعرفين بأني أكره المظلات، أصابتك هذه العدوة. قلتِ، بردانة يا ربي سيدي. أجر. أجر يا مريم. اليد في اليد. القلب بين عظمة الضلع. أنت في العين والجرح في الذاكرة. سقطنا. قطان استحما بمياه البركة. لم نهتم. ضحك الناس القليلون في هذا الليل.

ـ كيف حال حذائك المعطوب.

ـ أنتيك. لا أحد يشبهني في الدنيا.

تذكرت طفولتي التي انتزعتها مني مدن الريح العجيبة. كنا في ذلك الزمن الذي صار بعيداً نريد أن نوقف العالم عند تفاصيله التي تمر مسرعة. أن نوقظ المدافن المخفية داخل الذاكرة. أن نحتفل بكل أعراس المطر الملونة. حاولت أن أتكلم. قلت أجر يا مريم، سيأتي يوم ونحرم فيه من الجري وربما من... التنفس. الصمت سيد الدنيا. لا شيء يستحق الكلام. صمتك ورثته عن أمك الطيبة التي أفل نجمها بسرعة. أحببتها حتى الموت وكرهت أباك السكير الذي دفع باخوتك السبعة مع زوجته إلى حرب الموت والخراب. كنت أحياناً تكرهينه وتحملينه كل ما كان يحدث لك ولأمك. ثم ذات يوم قررت أن تخرجي من دائرة الخوف وأقسمت أن ترتبطي بأول رجل يعبر أمام عينيك.

ـ كان علي أن أتخلص من ثقل أبي وثقل الرجل الذي فض بكارتي.

ـ الرجل الأول. كان يحبك.

ـ رجالنا لا يعرفون كيف يحبون. يجدون دائماً الفرصة لتنغيص الحياة عليهم وعلى من يدعون حبه. في هذه المدينة لا يعرفون للشهوة معنى ولا يتقنون حتى الأدوار التي تمارسها الحيوانات براحة وغريزية. ما يفرحوك حتى في شيء.

ـ أبوك يعرف.

ـ أبوك يعرف قصة الرجل الأول؟

- يعرفه كونه صديق الدار لا أكثر. لكنه لو سمع بالحكاية لزجني في أول زجاجة يصادفها في طريقه. خسرت البكارة. لكنك ربحت حياتك. يجب أن نعيش الحياة بجنون. جدي دون كيشوت. الله يرحمه في قبره الرخامي. يقول الجنون الحكيم، أفضل من التعقل الأحمق. كان دون كيشوتاً رهيباً. وأحد الأنبياء الضائعين. لم يعشق أكثر من فرحة دولثينايا التي شاهد بين تفاصيل وجهها الصغير فرحته وجنونه. كان دائماً على يقين أن الحقيقة قوية، فهي كالزيت، تطفو دائماً فوق.

- أفهمك ولكنك يجب أن تنسى كل شيء. نحن مع بعض وهذا لوحده حظ كبير.

- يعذبني الموت يا مريم وأخشى أن يسحبك مني.

- لا شيء يستطيع صد الريح.

ضحكاتك كانت دائماً تختم بدمعة. من الحزن نعرف قيمة الفرحة. يجب أن تنسى كل شيء. قلتِ. أنا لك يا يماك واش بك؟ يضمنا هذا الفراش الذي استقبلنا أول مرة حين دخلنا هذه المدينة. يجب أن تنسى خوفك. سفيان الجزويتي. أنك قضيت عدة أسابيع في مخزن الدواليب المسروقة قبل أن تدخل عيون صالح البرادعي المكان وتضبطكم منهكين خوفاً وجوعاً. أخرجوك كالفأر من كومة الدواليب المصفوقة فوق بعضها البعض. لم تقاوم. شاهدت كبيراً وكبرياء جريحاً يسيل من عيني الزهراء الفولونطارية قبل أن تصرخ بأعلى صوتها عندما شعرت بخيانة صالح ولد لخضر لصنامي: داروها بنا أولاد الكلب، باعونا بالرخيص. لم يخرجوك بالحذر واللطافة التي دخلت بها. دفعوا الإطارات بأرجلهم الثقيلة. اندفعت كلها ليظهر رأسك وعيونك التي لم تكن لتصدق ما يحدث. سجلوا في المحضر قبل أن يغيبوك في الحفرة السوداء: ضُبط داخل مستودع أسلحة، يهئ للمس بأمن الدولة، مع شرذمة من الأعضاء السابقين في الاتحاد الطلابي المنحل. كنت منكسراً وصامتاً. التهم كانت كبيرة

ولا لغة كانت قادرة على الوقوف في وجهها. النور لا يخرج إلا من القتامة، هكذا كان جدي يقول. فحيث يسود الخداع، تختفي الحقيقة مؤقتا.

ـ وصلنا إلى حالة الهبل يا عزيزي فاوست؟ من قال لك أيها المجنون أن دون كيشوت أحد أسلافك الموريسكيين. هذا المخلوق أنت صنعته. إنه مجرد رجل ورقي تسلى به سرفانتس عندما غزته حالات الجنون في عزلته وسجنه.

ـ يا سفيان لماذا تحشر أنفك في الأشياء التي لا تعرفها؟ جدي هو أنا وأنا هو جدي. مجرد فكرة رائعة.

ـ قل مهبول مثلك وبركه ما تزوق.

عيناك ليل يا مريم وهدوء المدينة مقلق. بدأنا نتكرر.

قلتِ للمرة الألف وكأني طوال الزمن الذي مضى لم أكن أسمعك:

ـ الليلة لنا. لنا وحدنا.

ـ أولاد الكلب، شوهونا من العمق حتى صار من المستحيل ترميم كل الكسورات.

ـ أنس كل شيء. لنعش اللحظة، مثلما كنا نعيش المطر.

اصمت. اسكت. نم. ارتح. لا تقل شيئاً. لن تقتلنا حقارة صالح ولد لخضر لصنامي. مثل العقرب الأصفر، يسمم ولا يقتل إلا بشكل استثنائي. ألم تعلمي بعد أننا نعيش حالة الاستثناء؟

أسمع الآن وسط فراغ المدينة، دق قلبك ونقرات المطر وهدوء الليل والنداءات التي تأتي من بعيد وحركة الحراس الليليين الطيبين الذين يؤدون واجباتهم بدون حفاوة زائدة والكناسون وصفارات الإسعافات الليلية. ثم. ثم.

بكيت الجرح والخلوة ولم أبك الألم.

إذن أنت مريم.

كه. كه. في نهاية الشارع أعدت تفقد حذائك، الذي بدأ يثقل. وجدت كل خيطان المدينة المهملة قد طوقت فتحاته الكثيرة. عدتِ إلى إشراقتك القديمة. المياه شمخت السروايل. الجنون ازداد. مهابيل يا لطيف، قال أحد المارة. جالسين كنا على الرصيف الليلي. البرودة تصعد من تحت. النار والشفاه اليابسة. اللون الآجوري. الأيدي ترتجف.

ـ دبر رأسك. أنت وعدتني بأن تقضي الليلة خارج البيت.

ـ لم تبق إلا ساعات ويصبح الحال.

قمت. لم أشعر هذه المرة ببرودة أحجار الرصيف الإسمنتية. العابر لم يسكت: يسكرون ثم ينتظرون من يأخذ بأيديهم. يبدو أنه لا شأن لهذه المخلوقات الضائعة ولا عمل لها إلا الناس الذين لا يشبهونها. وهذه الورقة الملعونة... *تتخذ إجراءات قضائية صارمة ضدكم. شكراً*. لا أشعر بأي اطمئنان لهذه الحروف التي كلما لامستها زادت كآبة واستفزازاً. الورقة علاها اللون الآجوري. صديقي يقول. بين الأخلاقي والسياسي مسافة. لن يدفعوا بالقضية نحو التهمة الأخلاقية. كيف تنكر؟ ضبطت يا ولد القحبة عارياً بصحبتها. سيحولونك إلى شهيد منبوذ. وقضيتك التي تتخبأ من ورائها ليست أكثر من امرأة.

آي! هذا الجرح صار مثل القماش الراشي، كلما ضغطت، زاد تمزقا. مسكين أنتَ. ومسكين من يسمعك. حالة مستعصية من العبث. ماذا كان إحساس أبو مريم وهو يدخل إلى القرعة ويتكور كالجنين ثم يسدها على نفسه بغطاء الفلين ليعثر عليه في أحد الأصباح الباردة في شارع ما ويباع بعدها إلى أقرب متحف وطني بوصفه إحدى العجائب الوطنية الكبرى. متكوم، بابتسامته الساخرة الأخيرة ويده اليمنى التي ما تزال عالقة بخيط السدادة التي قربت أجله. عيناه اللتان أغمضهما في وقت مبكر، قبل أن يشاهد نفسه، وهو يرفع أصبع يده الوسط ويقوسه باتجاه السياح الذين لا ينتبهون لحركته من كثرة دهشة معجزة الساموراي الأخير.

الآلام الحادة تحفر الظهر. تتمدد نحو العمق أكثر. مع ذلك، يحدث أحياناً أن لا أشعر بأي شيء أبداً. يقولون أن الموت مخيف. حتى الآن لم أشعر بالرعب الأكبر. بالرجفة الأخيرة. الموت ما يزال بعيداً. قم. قم. قم. هيا قم وتدحرج، قد تكون المدينة نفسها، الآن، تزحف نحو نفس الموت.

وأنت مريم. بنت الساموراي الأخير.

- لن يلمسك. وقبل أن يفكر في ذلك يجب أن يعد قبره.

- وهل تظنني خائفة من نظارتيه السوداوين؟

- تخيفني مهمته. هو ليس هنا إلا لمحونا.

- ما يزال كما عهدته. لم يتغير. يهدد ولا يفعل شيئاً.

- هذه المرة ليست مثل المرات السابقة.

- ما الذي تغير.

- لم تعودي معه.

أعرف جبنه. تقول مريم. ربما مجرد لعبة ركبها القاصرون للحد من هذا الحب وهذا الجنون. أحبك وفي القلب شيء لا يقاوم. أحبك وطز في البقية. يعمرها ويخلي إذا حبْ.

تململنا في الفراش حتى صرنا توأمين في رحم أحجار يابسة.

كنتِ الساحة وكنتُ مقتول الجنون والفرح.

الفصل الثالث

طواحين دون كيشوت

دمار.. دمار.. كل شيء فقد معناه وصار رديفاً للموت.

هل كانت البنايات والعمارات العالية محطمة وكأن حرباً أهلية مرت عليها أم مجرد هوس مني سببه آلام جرح الظهر وهذه السكين المنغرسة في الظهر حتى المقبض الخشبي؟ لم يكن شيء واقف في هذه المدينة المنكسرة والمبللة عن آخرها كعصفور.

هذا الهواء الليلي قاس كأكفان الموتى الباردة. ينفذ إلى الجرح بهدوء. يغيب بين مساحات القلب المتعبة، شفرة حادة. كلهم يفكرون للآخرين ولا أحد يعرف ماذا يفعل حين يتعلق الأمر به. نعوم الآن اللامعنى بكل ارتياح. الناس راضون بالخواء. هل تسمعين صراخي يا مريم التي تنحني بهدوء على الجثة وتبكي بأعلى صوتها كطفلة سرقت منها أشرطة ضفائرها. تبكي حتى تفرغ محاجر عينيها وحتى يقتحم الليل تفاصيلها الداخلية. إنهم يتوافدون نحو الذاكرة مثل السلسلة، يكفي أن تستحضر واحداً ليتداعى الكل أمامك:

ـ تبيعين البلاد وتتمسكنين؟ زوجك باعك. يجب أن تعرفي أيتها الفاجرة، يا قحبة عسكر الروم والبحارة الأجانب، أنه لم يعد لك ما تخبئين به عورتك.

ـ يا سيدي أنا لم أفعل ما يؤذي هذا الوطن.

ـ سوى أنك تبيتين مع هذا الأحمر وتخططون لإعادة الاتحاد الطلابي إلى الحياة من جديد.

ـ أطمئنك يا سيدي. الاتحاد لن يعود. لقد قتلتم كل قيادته وشردتم من كان عمره طويل بعض الشيء!.

ـ ما زلتم تكتبون وتوزعون النشريات القديمة.

ـ لقد أحرقتم المطبعة وأذبتم في الآسيد مديرها.

ـ من أين لك بهذه المعلومات؟

ـ شأنكم لم يعد سراً. أنتم تفضحون أنفسكم بأنفسكم. ستأتي ريح ساخنة يا سيدي وتكنسكم واحداً واحداً ولن تجدوا حتى من يخبئكم. ستندفنون في الغيران مثل الناس البدائيين وستُخرجون منها كالجرذان وكناس الكهوف بلحاكم الطويلة؟ هل تعلمون يا سيدي أن ذلك اليوم لم يعد بعيداً؟

مريم قولي لهم إنكم تفعلون معي ما فعله القتلة مع صالح الوراق الذي ضبط يرسم تخطيطا للقمر ويهديه للعشاق.

صالح الوراق! تحفة المدينة المنسية. شاعرها الضائع.

في البداية كنت تكرهينه. اسمه وحده كان كافياً ليفجر فيك خرائب المدينة التي هربت منها وعيون زوجك التي تندفن في صدرك باردة.

ـ هذا الاسم يعيدني إلى خراب أرفضه.

ـ لكنه صالح آخر. هذا يحب الكتب والشعر والحياة.

ـ هذا اسمه صالح الوراق.

شيئاً فشيئاً بدأت تجدين متعة في لباس صالح الوراق الجلدي القديم وزغب وجهه الذي شاخ في الثلاثين وميلان طربوشه الصوفي الذي يستر به شعره القليل، صيفاً وشتاءً. تعشقين شعره وأوراقه ورائحة الكتب الصفراء والفئران التي تعشش بين حروفها. حدث هذا قبل أن نفقد في الزحمة صوته ونداءاته اليومية في هذه

الشوارع وتندفن إلى الأبد صراخاته ومشيته المنكسرة. لكن اسمه يعذبك. صالح ولد لخضر لصنامي؟

ـ ما أبعد الشقة! هه. تافه.

ـ انسيه. لقد قادك إلى الحفرة، أنتِ زوجته فكيف يرحمنا نحن؟

ـ يجب أن تصدقني، هو لا يحب أحداً إلا نفسه. حين سألته عن أحوالكم عندما سحبتم نحو الحفرة السوداء، قال أنه يأتيكم بالأكل في مخازن الإطارات المسروقة. النضال يحتم أن تحفظي المسألة سراً. كان يظن أنني لا أعرف وساخته. يصرخ بأعلى صوته عندما ألزم الصمت: يا ربك واش بك؟ أفعل كل هذا من أجلك ومن أجل سعادتنا. أفكر فيك. في أمك المسكينة التي نسيها والدك. مسؤوليتي الكبرى. المسكينة لا تعرف إلا شقاء الدمعة. أحبك يا مريم. ضرورات النضال تقتضي اليقظة واليقظة والسرية التامة.

نتدحرج. يغيب وجه صالح ولد لخضر لصنامي، وتبقى عيون صالح الوراق وصرخته على أطراف الشوارع الخلفية: كتب تاريخ..عقود فريدة.. الأدب.. تاريخ غرناطة.. سيرة سيف بن ذي يزن.. الهلاليون.. كتاب الإيضاح في علم ما لا يحمد عقباه.. نضحك. يلوح بيديه النحيفتين من بعيد. الحياة ما تزال رائعة وتستحق أن تعاش ونغوص في تفاصيل المدينة. اليدان في السروال المخملي الأسود. نستمتع بالصمت وبوقع الأحذية وهي تتكسر على مياه الأمطار التي لم تتوقف منذ أكثر من يومين. تنام يدي على خصرها بارتخاء، أشعر بعنفوان جسدها. مريم.. تنظرين إلي بحزن. أتساءل، لماذا الأمطار تقوي شهوة الأحزان. تحرقين سيجارة ثم تختبئين في صدري كسفينة ضائعة تبحث في اليم عن مرفأ. نحاول أن ننسى لحظة التعب والخوف. نصفر. اليدان في جيبك المخملي ثم اليد في اليد. ندندن أغنية قديمة، حفظناها أيام الطفولة..

Il était un petit navire,
qui n'avait ja.. ja..
jamais navigué

تضحكين بفرح. تتذكرين الشرائط الحمر وشعرك الطويل، ولباسك الملون الذي لم تريه إلا في الأحلام، ووجه أمك الذي شاخ قبل الأوان وغاب وأنت لم تشبعي من النوم على انكساراته. وأبوك الساموراي، الذي مات سكراناً ومعزولاً في قرعة نبيذ. تنتبهين إلي باندهاش. فجأة نكتشف أننا قد تحولنا إلى مغنيين رائعين وأصواتنا إلى حنين العصافير والطيور التي شيعتك بعيونها الصغيرة، منذ أن وضعت خطواتك الأولى على طريق المنفى الاختياري. تنتظر عودتك كل يوم.

في هذا الصباح، كنت قد انتهيت من كتابة قصيدتي الأخيرة *أعراس المطر*. يذكرني هذا العنوان بقصيدة لشاعر عربي كبير لم أعد الآن قادراً على تذكر اسمه. قلت لي:

ـ رائع أنك خادعت سفيان الجزويتي.

ـ عندما أسكر، ينام هو بالقوة لأنه يطمئن بأني وأنا سكران لن أصبح قادراً على الإيذاء.

ـ بليد.

ـ من الأشخاص الكثيرين السعداء جداً في غبائهم.

عند العتبة. نظرت إلي بعينين جميلتين. قلتِ أحبك ولن أتوقف عن تكرارها. ثم خرجنا وتدحرجنا عند صالح الوراق رغم صرامة المدينة في مثل هذا الوقت، التي يجب أن تستأذنها لتسمح لك بحق التنفس الجزئي. متعب يا مريم حتى العظام. قلت لك أن الدمار الذي يلاحقنا أصبح الآن ينام فينا. هديتك الجميلة تملأ هذا الخواء. القلم. أكتب به أجمل قصيدة. بالولاعة أحرق شبق الأحزان. بعدها لا تهتم.

ضحايا لعبة كبرى وقاتلة.

تأتيني روائح الويسكي. تأتي مني. ياه! هل سكرت؟ ربما كان شراب القنديل هو الذي يجعلني أتحمل قساوة هذا الجرح التافه. وهذا الدفء الذي يملأ القلب والجسد والروح؟

ـ تمدد قليلاً. ستتعذب هكذا كثيراً. هذا الوضع غير ملائم.

ـ مرتاح. لا يهم.

الخطأ كان قاتلاً. المفترق الفج الذي ضيعك مني، فسلكتِ طريقا غير طريقك إلى السوق الشعبية الكبيرة. كان علي أن أغادر القنديل قبل أن ينزل الليل. كان يجب أن لا أسكر حتى آخذك إلى أقرب نقطة إلى حدود المطار لأطمئن عليك على الأقل أو نتخبأ في البوقال ذي المحلول الأكسجيني الموضوع عبثاً في المطبخ. نقضي الليل ومع الفجر نتسلق أول طائرة عائدة إلى بلاد الريح. أصدقائي كانوا كثرة ولم أستطع تفاديهم. الليلة الأخيرة معهم. اقترحوا الكأس الأولى على نخب الغائبين. شربناها. الثانية مرت بدون نخب. قهقهة أثارت انتباه الفنانين الجوالين. الثالثة على روح المدينة. الرابعة إلى البعدين عن حرقة الوطن والخامس إلى الرجل الذي قص أحد أسلافي الملك خازوق ذكره ودفنه على صدره تحاشياً لعودة ظهور ذكره بين شقوق القبر. وحين شربنا كأسك، كنت قد بدأت أضيع على ظهر غيمة بنفسجية بعدها لم أعد أرى شيئاً غير وجهك والوجوه الكئيبة التي كانت تزحف منذ زمن بعيد نحو حتفك. نظرت إلى الساعة. التاسعة والنصف. حزمت أتعابي وقمت. في الشارع التقطتني سيارة. لست أدري هل كانت لدي القدرة الكافية لرفع يدي. جئتك أجر ما تبقى من هذا الليل. الوقت كان متأخراً. أتذكر أني قلت لصاحب السيارة مساء الخير يا عم. كيف الأولاد وكيف الشغل. ضحك. لا بأس. ندفش ونحاول نمشي الدنيا. ثم صوب عينيه نحو ضباب الطريق الواسع. عرف أني كنت أجانب السماء السابعة.

أكسر صور الحزن لكي لا أرى إلا وجهك المضيء. مددت شفتي نحو حلمتي نهديك النافرين. نهضت الطفولة في عيني. لقد سرقوني من صدر أمي ثم انسحبوا بخيولهم نحو مدينة بعيدة. قالوا أن العسكر في بلدتنا يقتل الأطفال. الرومي مجنون ولا يرحم. إنهم يقتلون كل من يشمون فيه رائحة البارود والذكورة. أبي كان في الغابة يحيل الحرائق والصفرة والرماد إلى حدائق الجنة التي ذكرتها

الكتب السماوية قبل أن يغتصب حلمه رجال غامضون ويدرجونه في كتاب النسيان. أختي الكبيرة، خيرة، هي التي حزمتني على ظهرها وهربت بي متسربة داخل الوادي الجاف. في منتصف الطريق سمعت صوتاً يأمرها بالتوقف ولكنها لم تفعل. سكنت رصاصة أذنها اليسرى. لم تقف. مع الفجر الأول دخلت المدينة مع القوافل الهاربة. كان الدم قد جف على أدنها ورقبتها.

أمد يدي. يستدير كفي بقوة. أتحسس لحمك. أضغط بكل قوة. كم أشتهي المرايا لأرى المتعة الغائبة. في نهديك طعم الأمومة المفقودة، وطعم الليل والأشياء التي لا أعرف تفاصيلها. لعنت زوجك الغبي الذي لا يعرف إلا إعطاء الأوامر وتمزيق المنشورات التي كانت تصلك. لعنت أختك المخربة في عمقها. لعنت الحفرة السوداء والذين اقتادوك في النهاية إليها بتهمة مساعدة أعداء الوطن والشعب. لعنت مخزن الأسلحة الفتاكة (مخزن الإطارات المسروقة) الذي ضبطنا فيه ندبر انقلابا ضد راحة البلاد. مريم.. وحياتك إنه هنا، حدث هذا في المرة الأولى عندما روج أحدهم لكذبة دفع ثمنها صديقي حميدو. لكن هذه المرة كل الدلائل تشي بوجوده. رائحته التي تشبه رائحة الذئب تسبقه. إنه يقتفي خطانا. قلت لك مرة أخرى بغضب، رأسك غليظ. يجب أن تعرفي أنه هنا. أسمع خطواته ورائي وهي تنكسر خطوة خطوة في شكل مارشات عسكرية. صالح ولد لخضر لصنامي يتمتع بطلعة الدكتاتوريين الصغار: طاقم أخضر، حذاء خشن، نظارتان سوداوان وحركات استثنائية للعينين واليدين ومؤخرة يمسدها كل مرة كأنه يطمئن على وجودها في نفس المكان.

ـ النافذة كانت مشرعة والباب نصف مفتوح.

ـ لا تكن مجنوناً. هو لا يعرف البيت.

ـ متأكد أني تركت كل شيء مغلق.

ـ وأنا لم أفتح شيئاً. ربما كانت الريح هي السبب.

ـ أقسم أنه هو أو بعض زبانيته.

ـ لا ترهق نفسك. حرب نفسية قذرة. قد تكون الحكاية مجرد كذبة مفبركة من أعدائنا في هذه المدينة.

ـ لا أعداء لنا في المدينة. رائحة الذئب أكسدت دمنا.

لست أدري هل كلمتها. هي التي كلمتني. دخلت عمق البيت وتركتني أغير ثيابي التي بللتها الأمطار وأضعها على المدفأة لتنشيفها. ثم عادت وفستانها البنفسجي في يدها. كانت عارية. جسدٍ منحوت بإتقان، أعتقد أن الله استغرق وقتاً كبيراً في حفر كل استداراته بدقة.

ـ تقول بايتين برا. الغلطة مني. أنا المجنونة.

ـ وماذا فعلنا غير ذلك؟

لبست سترة ليلية. بانت تفاصيلك تحت نصف اللباس الناعم. الضوء عمق الصدر والساقين وأعطاها نبضاً آخر.

ـ يجب أن تعرفي أنه بدأ يقضم أطراف المدينة.

ـ وأنت يجب أن تعرف للمرة الأخيرة أني هربت معك لأني أحبك وأني اخترت أن أشرك حياتي بحياتك.

ـ هذا يزيد من إصراره على قتلنا.

ـ أنس كل شيء. لنعش اللحظة مثلما كنا نعيش المطر. أصمت قليلاً ولو للحظة.

أتحسس أصابعك الرقيقة وهي توضع على شفتي لكي لا أكسر اللحظة.. أسست.. استمع فقط إلى خفقان قلبينا.

أمش. قلت لك أمش ولا تتوقف أبداً. يجب أن تواصل المشي حتى لا يأخذك القتلة مثل الفأر. حميدو بالبيت الآن، هو الوحيد الذي سيأخذك إلى المشفى. لا تفكر كثيراً. اللي تتفكره اجريه. هكذا قال ناس بكري في البلدة البعيدة التي تستقبل الموت مثلما تستقبل الليل

والنهار. لا أحد يعلم أن الناس في بلدتنا يعودون إلى التربة مثلما يأتون لأول مرة كالأغنام والطيور والأشجار البحرية بطفولتهم وعيونهم التي ترف للغادي والرائح وهمومهم وأحزانهم وصراعاتهم ورغباتهم المكبوتة وأحقادهم ونومهم الذي لا يتم مثلما هو الحال عند جميع الخلائق، يحلمون وعيونهم مفتوحة حتى لا يضيعوا لحظة واحدة من المشهد الذي سيقصونه على الآخرين بمزيد من الإيهام يصيرون فيه السادة والأبطال. يتمنون من أعماقهم لحظة شهادتهم بفرح الواقف على شفرة الموت، أنهم لو يعودون مرة أخرى إلى هذه الدنيا في عيون الصبيان، سيكررون نفس المصيبة التي أدت بهم إلى غياهب التهلكة. هم هكذا لم تربهم لا الهزائم ولا الانتصارات.

في الحفرة السوداء، كانت التهمة في البداية المس بالأخلاق العامة. ثم انتهت بتنظيم عصابة أشرار هدفها المس بأمن الدولة.

ـ لست هنا بسبب تهمة سياسية.

ـ التهمة لست أنت من يحددها. من وراءك تنظيمك السري يا ولد الخامجة.

ـ لا أنتمي إلا لنفسي.

ـ هذا الكلام سمعناه في الكتب. عندما نقيئك الدم سنرى إذا كنت قادراً على الشعر. قبل أن تبعثوا الاتحاد سنبعث أرواحكم إلى جهنم. سنتبعك إلى الفراش.

ـ أنا لم أفعل ما يؤذي وطني لأخاف.

ـ سنرى إذا كنت قادراً على قول نفس الشيء أثناء التحقيق.

آي.. رب هذا الجرح لا ينام ولا يتركني أفكر. هو هنا! أشعر بأنه هذه المرة هو بالفعل هنا وأن كل المرات السابقة لم تكن إلا محاولات صغيرة للتدرب على خداعنا. معنى ذلك بكل بساطة، أنه تبعني مترنحاً بخطواته على مياه هذا الشارع الفج ثم رجع. وأنا

الولهان بتفاصيل نهديك الجائعين للحظة هاربة من تحت نظارتي عيني صالح ولد لخضر لصنامي. سأفعلها. صدقيني سأفعلها. بعد هذا الهم، لو أبعث ثانية، سأدافع عن حريتي وسأرتكب نفس الحماقة وبنفس الطريقة: أحبك وطز في البقية. وإلا سأكون تلك الصخرة الجافة المثقوبة ألف ثقب. هربتْ من خرائب المدن القديمة لتنام بجانب الساموراي في المتاحف الكبيرة. سأعيد رسم جسدك الذي لا أتذكر منه إلا الليلة الأخيرة بكل تفاصيلها المقلقة والخوف الذي ظل يأكل حالات الصمت وارتجافة نهديك ويديك وأنفك النافر الذي يتشمم الخطر من بعيد لكنه هذه المرة غفل قليلاً ثم وأنا أدفن رأسي المثقل بهموم سفيان الجزويتي داخل شعرك الساحلي وأنام حتى الفجر وعندما أستيقظ لا أفعل ذلك إلا على هدوء ابتسامتك المشرقة وموسيقى الليل ونحن في أحد المطاعم المعزولة على أطراف المدينة.

مريم.. وأنا أقتحم أسرارك أشعر بالألم في عينيك، لكن سرعان ما تتحولين إلى حمامة رشيقة تصبغ رجليها بالأحمر وبالحناء البدوية وأشواق الريف. أصابعك. فمك المتقن الرسم. رحابة صدرك الذي لا يضيق من قلقي وحماقاتي التي ارتكبها في حضرتك وفي غيابك.

- تحبني.

- تشكين؟

- لا. أريد سماعها.

- أحبك. في القلب تشتعلين دوماً.

- إذن يجب أن نشترك في تفجير رأس سفيان الجزويتي الذي ينغص علينا سعادتنا.

- سفيان مرض قاتل.

- هربت معك إلى النار حباً فيك وهذا يكفيني.

- وأنا أكره هذه النار التي تأكلني من الداخل.

تململنا في الفراش. شعرنا بالدفء يصعد من أعضائنا التي بدأت تشتعل. سكرة مقهى القنديل والأدخنة المتصاعدة. أتنفس رائحة جسدك الذي نحتته أمواج البحر الهاربة التي ولدتك على حافة الصخور الهاربة. الباب وجد نصف مفتوح ومن بين شقوق الباب والنافذة كان يتسرب شعاع أسود. أشعر بظله المزعج يغطي هدوء الأزقة الباردة التي أسلكها كل يوم قبل أن أندفن في صدرك. يتبعني. شتاء القسوة يأكل كل التفاصيل الجميلة. الحب يقاوم عيون المدينة التي تتلذذ بسحب الفرحة من بين حجاب الضلوع وتفرغ أحشاء طفولة هذا الحب الذي بدأ قبل أول جلسة في تلك البلاد البعيدة.

كنت أبحث عن شيء غامض وجميل ينام بين الأبجدية العربية، للكتابة والتجلي. كنا ما زلنا في بداية اكتشاف المدينة. كان المقصف متواضعاً لكن دخانه وجو رواده يساعد على بعث مدافن القلب. ماذا تشربين؟ نظرتِ إلي. غمرني حنينك ودفؤك الكبير. ابتسمتِ ثم سحبتِ كرسيا وجلستِ. قلت:

- هه! ماذا تشربين يا مريم؟

- شاي. أسهل.

- اجلسي. مشتاق إليك.

- قل لي، كيف حال قلبك.

- كما تركتِه آخر مرة.

بين يديك، كانت تنام رزمة من الأوراق. قلتِ أعد بحثاً عن مصادر الأساطير في ثقافتنا.

- ليس هذا هو المهم. إننا يومياً نصنع أقداراً لا تختلف كثيراً عن الأساطير. المهم هو قلبك. كيفه الآن؟

لا أذكر جيداً ماذا قلت لك ولا بماذا أجبتك. لكني ظللت معلقاً بتفاصيل الطفولة وبابتسامتك التي تأتي كالنجمة وقبل الفجر الأول

تنطفئ. قلتِ مرة أخرى، ما بك. لم أملك إلا الجواب الذي صار سهلا مثل شربة ماء.

ـ متعب

ـ أنا لك بطولي وعرضي، ألا ينسيك هذا حالة التعب؟

شعرت بدفء ما ينبعث من عينيك ويعاتبني بلطف.

ـ شكرا يا مريم. وداعتك تأسرني.

ثم دفنت عيني في كأس الشاي الذي كان بخاره يتصاعد إلى أنفي وتركتني أغيب في تفاصيل وجهك.

تململنا مرة أخرى ناحية عقب السيجارة التي لم تنطفئ بعد، على جنبات السرير. حقد صالح يعذبني. كان يجب أن ننام بطريقة الساموراي في البوقال الأكسجيني حتى لا نرى أعقاب السجائر وهي تطفأ على جسد الزهراء. فظيع أن يحدث ذلك. شيئاً فشيئاً، تحت الضوء الأرجواني الخافت، كان وجهك يتقاطع بوجه الزهراء الفولونطارية. أخذوها من الحفرة في ذلك اليوم البارد، من بين الإطارات المسروقة، ورموها عند الباب مثل الخرقة البالية. حتى أنت يا الزهراء الفولونطارية، صديقة العمال والفلاحين؟ قالها الرجل القصير المكلف بالتحقيق معك. المسؤولية المترتبة عن حالة مثل هذه خطيرة جداً. جاء دورك، أحكِ. أصدقاؤك كلهم في الظلمة. خلاص انتهت اللعبة. لم يعد لزمرة الشيوعيين إطار يتخبأون وراءه مثل أطرِ العجلات المحروقة. نحن هنا لسماعك فقط. تكلمي أين البقية فبل أن أنزع لك روحك. سنعيد الاتحاد حينما نريد نحن لا أنتم. يضعها على المنصة الواسعة بمساعدة السجانين. يفرج رجليها على سعتهما. كانت تحب الجمباز النسوي. تضحك: تعرف، المرأة تحديداً تملك قدرات مطاطية استثنائية أكثر من الرجل، المهم أن يكون الإنسان مقتنعاً وقادراً على الذهاب وراء جسده إلى أقصى حد ممكن. لهذا للمرأة أكثر حساسية في تلقي الألم واللذة والمقاومة. ثم تقهقه بأعلى صوتها، يا سيدي، شكون يسمع بك؟ جمبازية

فاشلة. فظيع يا مريم، كان الزبانية يربطونها بالأسلاك المشوكة ويغرسون رؤوسها المدببة في لحم الزهراء الفولونطارية. يتقدم منها أكثرهم قصراً، مخبئاً وجهه وراء قناع أسود. يمد يديه إلى جسدها. يعرك نهديها بقوة كمن جرب تفاصيل المكان وحدد أكثر الأجزاء حساسية. يلحسهما كالكلب المسعور. عيناه المتقدتان من وراء القناع تشبهان عيني صالح ولد لخضر لصنامي. يتعرى. يرمي بنفسه على جسدها. يقتحمها بعنف فتغيب صرختها التي شقت صمت المكان بين فجاجة حيطان المبنى. يشعر بموت اللذة تحت قساوة دمعها ونطها المتكرر. لا يشفي غليله. يأتي بالقضيب الحديدي الذي يتجاوز طوله الشبرين ويدخله. تصرخ. يتلذذ ويشعر بالراحة الكبرى. يدخله أكثر. يشعر بوجع في عينه اليسرى. قولي من معك يا قحبة الشيوعيين؟ أين تخبئون الأسلحة الفتاكة؟ يدفع أكثر بالقضيب. تغيب صرختها وسط الحفرة السوداء. يدفع أكثر. يخرج. يدخل. تتسارع الوتيرة ومعها يزداد لهاثه. ثم فجأة يأتيه الصفاء الكبير فيستل القضيب الحديدي بارداً وعليه الدم الخاثر. يغمض عينيه ويجف كل شيء. بينما توقفت الزهراء الفولونطارية عن نشب عيونها، فمها، لسانها وأظافرها، على خشب الطاولة ووجوه المحيطين بها. صمتت وارتشقت خزرتها على السقف. كان كل شيء قد انتهى.

ـ لا. لا يا مريم يجب أن لا يحدث هذا أبداً.

ـ أنا كذلك حزينة جداً لموت الزهراء ولكن يجب أن تفكر في نفسك وأن تفكر في من حين لآخر.

ـ كيف يمكن أن نفكر في أنفسنا في حضرته. رائحته الكريهة تملأ المدينة. إنه هنا.

ـ يمكن تفاديه. سننزل عند أختي، على الأقل هي تشبهه ولا يشك مطلقاً بوجودنا عندها.

ما أعظم صمتك وإغفاءتك يا مر.. يم.. يم..

بحر قاس. موجه هاربة. كان ذلك المساء بارداً عندما عبرنا جسر مريم Pont Marie أحد الجسور الباريسية. الجسر الذي ينام على ظهر المدينة بأضوائه البنفسجية المدهشة. وقفنا مع كوكبة من الناس نتأمل مشهد فارس الفرحة المزركش الذي كان يدير أغاني إديث بياف ويدير سنوات الشوارع الباردة التي استقبلت دموعها اليتيمة. وقفنا مع الناس ورقصنا مع العجائز اللواتي كن محل سخرية بدمعهن. قهقهة الفارس المزركش.

ـ كما ترين، الدنيا تغيرت كثيراً. لم يعد الناس يخرجون بمظلاتهم البيضاء وقفازاتهم، الشارع الآن لنا. للمتسكعين البسطاء الذين لا يملكون سوى أفراحهم الصغيرة.

نظرت العجوز إليه نظرة حادة. قطبت جبينها بعنف. غضبت. صرخت. أوغاد. لا تفهمون شيئاً. لكنها سرعان ما أشرقت كشمس قديمة، حين طلب الفارس المزركش يدها واشترط أن تدار أجمل أغاني بياف. فمسحت الدمعة الملتصقة على عظام وجهها وبدأت ترقص برشاقة، في رأسها سنواتها العشرون التي اندثرت.

قلت مثل صبية استيقظت فجأة من حلم بنفسجي.

ـ لماذا لا نستطيع أن نقلدهم في حبهم للدنيا بهذه القوة؟

ـ التخلف ولا شيء آخر. نحتاج إلى قرون أخرى لكي نرفع رؤوسنا قليلاً نحو الشمس.

ـ مع أن المسألة بسيطة وبسيطة جداً. الناس يعقدونها على أنفسهم وعلى الغير.

في الطريق الواسع الذي كان قد بدأ يسحبنا نحو فندق السان سيفيران Saint Severain في شارع سان ميشال Saint Michel، كنا قد انتشينا. قلت لك، قبل أن نغمس أجسادنا في دفء فراش اللذة:

ـ يمكن للإنسان أن يسكر بالأشياء الجميلة.

ـ حتى البيرة الألمانية التي شربناها في معابر اللوكسمبورغ ما عندك ما تقول فيها. لذيذة ورائعة.

أنا الآن في قلبك يا مريم. صريع عينيك المشتعلين. مر زمن بعيد. بعيد على تلك اللحظات. إديث بياف تركناها في الجسر المعلق تذوب تحت أنغام الفارس المزركش الذي أضفت عليه الفوانيس البنفسجية هدوءاً سحرياً.

- لكن ابن الكلب أفسد عينا متعة البقاء مع بعض.

- لا يوجد في هذا البيت إلا أنا وأنت.

- وظلال الموت المؤجل.

- ليكن. سنموت مع بعض وهذا وحده سينغص عليه حياته.

مدت مريم يدها إلى شعري. دفنتها عميقاً مثلما كانت تفعل جدتي بحنان كبير. أحسست بنسمة تمر بين أصابعي، رقيقة كالشمس. كنجمة مزهوة بألقها، انحنت على صدري مرة أخرى. قبل أن تغوص كلية في الجسد والقلب. شعرت بدفء النهدين الذين لم ينكسرا. فجأة بدأت الطمأنينة تعود شيئاً فشيئاً لتملأ الليلة التي كانت تتضاءل بين أيدينا كالماء الصافي.

الفصل الرابع

أحجار الوديان الزرقاء

كدت أسقط على فمي وأنا أرفع بنطالي قليلاً لأرى الدم وهو يستقر في حذائي. شعرت بالدوخة وبحرارة الدم تنزل عميقاً مع عمودي الفقري، أشعر بها وهي تنفرج لتتابع طريقها نحو السيقان ثم رجلي.

الفرحة تتمزق. الحزن يصادر. ليس من حقك أن تمارس آلامك بحرية. الوجوه تضيع. الكتب تحرق. لكن الشوارع لا تموت. ورب هذا الرأس لا يرحم. وهذا الجرح الذي يشق الظهر وحجاب الضلوع. أفظع من كل شيء. ومن بعد؟ لا شيء سوى حالة الهذيان الذي لا يتوقف أبداً ورصف الجمل التي لا معنى لها.

حين غادرت البيت. قلت لك من الأفضل أن تبقي لوحدك عند أختك. أنت تعرفين التفاصيل. إنها لا تحبني. تكرهني كمرض زوجها المقعد. قلتِ أساعدك. قلت سأنزل عند صديقي الوحيد في هذه المدينة حميدو. سأبقى معه قليلاً في مقهى القنديل وبعدها سأقضي الليل عنده وباكراً سأمر عليك لنخرج من هذه الأرض الضيقة. صديقي. ثقتي فيه عمياء. أكثر من ذلك هو يسكن بجانب مركز للأمن: يكفي أن نصرخ ليسمعنا الجميع.

الأمن؟ هل صورتي عنه تحسنت بهذه السرعة؟ سبحان مغير الأحوال. انتابني فجأة حسرة سدت تنفسي، سحبتني إلى ذلك اليوم البارد. في الشارع أوقفونا. قالوا بسخرية لاحظتها في عيونهم المطفأة: الأوراق يا أحبة، لا يمكن أن نهين الشارع بهذه السهولة.

لم أكن أحمل معي غير قلبي وحبك. قلت لا أحمل غير وجهها. قالت مريم البيت قريب جداً ويمكن أن نأتي لكم بالأوراق التي تشاؤون. قالوا: اتركها معنا وعد أنت لنا بالأوراق. نظرت إلي بعينين مندهشتين. شعرت أن فيهما خوف الأطفال. قلت لا أستطيع. نذهب معا ونعود لكم بالأوراق. احجزوا أي شيء تشاؤون. ثم.. ليس لنا وجوه مجرمين. في عيونهم رأيت أشياء مخيفة تتراقص بعنف الدم. فكرت مرة أخرى. اذهبي أنت يا مريم وسأنتظر هنا معهم. سأوقف لك سيارة. البيت ليس بعيداً. التفت أجملهم نحونا. متزوجان؟ قلنا في الوقت نفسه: عاشقان، في الطريق. لم يضف شيئاً. غمز أصحابه. أعاد لنا الفرحة. الدنيا ما تزال بخير. ضحكوا من سذاجتنا. اذهبا، قال أجملهم. مازلتما عصفورين قادمين إلى الدنيا. احذرا قدر المستطاع. في المرات القادمة لا تنسوا الأوراق وإلا.. ثم غابت سيارتهم بين الدروب الضيقة.

ياه! كانت المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذه الكلمات الجميلة، وأرى فيها مثل هؤلاء الخلق المخيفين بشكل مخالف تماماً. العالم واسع يا مريم. انطلقنا بهدوء، وحين خبأتنا أزقة المدينة الهرمة، ركضنا بخوف. جرينا حتى شعرنا بالحصى يطحن تحت أقدامنا. كنا نخاف من أن يغيروا رأيهم ويتبعوننا. لم نكن مصدقين طيبتهم بسهولة. نجري ونغرس أظافرنا في الريح الهاربة التي كانت تصفر بقوة.

أوف! يبدو أن هذا الألم سيقتلني قبل أن أصل إلي صديقي الوحيد في هذه المدينة، حميدو. تحمله أصبح مستحيلاً مع هذا النزف الذي صار يتكاثف بقوة.

من الصعب الحصول على حالة صفاء وسط هذا الخوف.

كانت السماء قد انطفأت مثل الآن. وقفنا عند باب البيت ننتظر مجيء السيارة التي تقلنا عند أختك. لم نكن نحمل شيئاً سوى الخوف وبعض الحنين وحقائب العودة.

ـ لا أستطيع يا مريم. هي تكرهني. تعرفين هذا أحسن مني.

ـ لن أرهقك. احذر فقط وجوه القتلة الذين يظهرون أحياناً في وجه الملائكة.

ـ لست طفلاً.

ـ نحتاج أحياناً لنكون أطفال حتى ندرك الأخطار المحدقة بنا.

شعرت برغبة قصوى لتقبيلك. تلمست ذراعيك الممتلئين. شفتيك. مسحت على بطنك بأصابعي المرتعشة. تحسستك جزءاً جزءاً لكي أحفظ كل تفاصيلك. ضحكتِ.

ـ هل تخاف أن تفقدني.

ـ يوم يحدث هذا سأنتحر.

ـ أريدك أن تعيش دوماً.

تمتمت ولا أدري لماذا لم أتكلم بصوت عال: ربما كانت فرحتنا الأخيرة. ربما كانت آخر قبلة. دارت الكلمات على لساني ثم استقرت مثل الأحجار الرملية في الحلق. قبل أن نغلق الباب ونستقبل سيارة، انتبهت إلى وجهك، كان مشعاً. كنت جميلة مثل لحظة فوضى عشقية تقوي رغبة الالتصاق بالحياة أكثر وممارسة الحب بشكل جنوني. إنه الإحساس الفاصل بين قلم الكاتب وهراوة الشرطي الذي يذرع الشوارع جيئة وذهاباً.

ما العلاقة؟ لا أدري. علي أن أزحف نحو بيت حميدو. طيب، وسيأخذني إلى المستشفى بكل تأكيد. الجرح غائر ومزعج جداً. كل شيء تأكسد. نظرت ورائي. كان بيني وبينك ضباب المدينة والوجوه الغامضة التي أراها ولا تراني. حين سقطت دمعه ساخنة على الأرض، كانت كل الأشياء الجميلة قد بدأت تغيم وسط التفاصيل المقلقة. آه يا ولد فاطنة الهجالة، ولاداتك أصبحت عسيرة ولا شيء في الأفق غير النداءات التي لا تموت. تتفسخ عيون الموتى بين أصابعك الخمسة التي كانت تتسرب منها الأشعار وأشعة الشمس.

تتحول أجساد الذين أحببتهم إلى شيء غريب يشبه الدود. يتحلل بسرعة. تتفتت الخلايا كلها وسط الروائح الكريهة التي تنبعث من جثة رجل مات منذ قرن، حين انغرست السكين على ظهرك ببرودتها الجافة التي تحولت إلى نار صدئة. لم تكن تتصور أن المسألة يمكن أن تصل إلى هذا الحد. بان لك للمرة الأخيرة وجهها وهو يغيب وسط آلاف الرؤوس في شارع المدينة الرئيسي الممتد من البريد حتى السوق الشعبية الكبرى. تلمست قلبك قبل أن تتفحص عينيك اللتين بدأتَ تشك في قدرتهما على الرؤية. هو قالها لها قبل هذا الزمن: سأقتلك قبل أن يضعك بين رجليه. لكنك لم تكوني تتصورين أنه كان قادراً بالفعل على القتل وأن عينيه الصغيرتين قادرتان على تتبعك وكشف تفاصيلك وسط كثافة الريح الساخنة. كان يتمنى أن يكون هو أول من يفض بكارتك ولكن ظنه فيك خاب. يشك في كل رجل يداعب جمال عينيك. ذات مرة قلت بيأس: يبدو لي أن القاصرين، لحظة كآبتهم القصوى يصبحون قادرين على القتل. إنها ذروة الممارسة العلنية للجبن. صدقني، اليوم غيرت رأيي. نعم، مع يأسه، لن يتردد عن ارتكاب الحماقة الكبرى.

ـ تعرف! ذات مرة حين قلت له، لماذا تمزق أوراقي وكتاباتي كلما أصبتَ بحالة اكتئاب؟ تعرف ماذا قال لي؟

ـ ما يملأ القلب غيظاً وبؤساً.

ـ أسوأ من ذلك. قال أنتِ السبب في كل ما حصل لي من كوارث. قلت لك دعك من ربهم لكنك رفضت. اليوم صرت مريضاً بك وبهم وعندما أمزق أوراقك أشعر بالراحة الكبيرة. أنت مرضي المستعصي.

آخر مرة أراد أن يقتلك. لكنه قبل أن يفعلها فكر في النزول إلى الحفرة السوداء. وفوجئت وهم يلتقطونك من الشارع الواسع الممتد كالخوف في هذه المدينة. حين ركبت السيارة السوداء، تمزق سروال القاطيفا عند الركبة. سخروا منك. عندما تناضلين يا..

مريم.. يجب أن تلبسي سروالاً متواضعاً يقنع العمال برسالتك حتى لا تعودين به مثقوباً عند الركبة. كل شيء تحول إلى نكتة غليظة. تذكرت مسرحية عدو *الشعب* التي كانت تلعب بمسرح العمال. ظنوك تسخرين منهم.

- أنا حتى الآن لم أفهم سبب أخذي من الشارع.

- زوجك مناضل كبير ويخاف على وطنه.

- مني؟

- قلنا له لكنه أصر، قال المصلحة العليا فوق النزوات الذاتية. الوطن أكبر.

وماذا بعد؟ قلت لا شيء سوى هذه الحالات المبهمة. سالت من عيني دمعة باردة في هذه الخلوة الصقيعية وهذه العزلة التي لا رديف لها إلا الموت. غاب كل شيء وسط التفاصيل المقلقة. أزحف. يجب أن أصل بيت حميدو قبل أن تقتلني إعلانات الأطفال وهم يمارسون مجبرين، العادة السرية، مقابل فرنكات يتيمة. قبل أن ينزلوا إلى الشوارع يبيعون مارلبورو للمارة. يسافر القطار بعيداً. يفجر في دماغي، حبك الذي لا ينتهي. أتذكر فرحتك المذعورة، لكن رب صالح ولد خضر لصنامي، يتبعني كهذا الخوف البارد الذي يدخل الجرح كالإبر. أتذكر هذه التفاصيل الخجولة التي لا نستحضرها إلا حين نتعرى ونحترق بين أذرع بعضنا بعضا، قبل أن يتحول الضباب إلى خوف والخوف إلى شيء يشبه الموت.

قلتِ الدنيا هكذا. صنعها القتلة على شاكلتهم. تشبههم. غن. غن الآن. غن قبل أن تفاجئك الدبابات التي يحملها في حقيبته. سيدخلون من قلبك ويضعونك على حافة الموت ويبعثرون أشعارك في الطرقات والمراحيض.

- فاوست؟؟؟ ليسوا مخطئين بتاتاً في حقك، إنك تقتل نفسك بنفسك.

- سبحان الله. من سألك عن رأيك؟

- واجبي يا عزيزي فاوست يملي علي ذلك. اكتب شعراً طيباً، يحترمك الناس.

- الآن صرت تنظر في الشعر وغداً ربما في الفلسفة.

- يكفي من السخرية. أنا لم أقل ذلك.

- لكني أعرف يا سفيان أنك تعني ذلك. تريدني أن أشبهك بكل بساطة.

- أنت تهرب من الحقيقة. من منعك من التعبير كما تريد وتكتب شعراً تحترم فيه مصلحة البلد العليا.

- أية مصلحة يا رجل؟ هذه مجرد قصائد للحب. الحب فقط.

- أشباهك لا يعرفون استغلال الهامش الديمقراطي الذي تتمتع به بلادنا. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

- حقنا في الكلام والعمل.

- عندكم كل شيء ولكنكم طغاة صغار.

- رائع! الديمقراطية أن نكتب في المراحيض والأماكن أحاسيسنا؟ لنحررها أولاً من الكتابات المرتجفة وبعدها نتحدث عن الديمقراطية.

- شفت كفاش؟ تروحوا دائماً للحالات القصوى والنادرة.

- أنت مخزون وراء المتاريس الرملية، لا تعرف شيئاً. انزل إلى الشوارع وادخل المراحيض العمومية وقل لي بعدها رأيك.

عن حبيبي، عن. سفيان لن يكون إلا جزويتيا. الغناء متعب لكن يجب أن لا تصمت وإلا انفجر جرح الظهر كالبركان. منذ أن فتحت عيني وأنا أتمنى أن أرى العصافير على أشجار اللوز العملاقة وعلى تيجان القمح الملون بآلاف الألوان القزحية وأن لا أمشي في نفس الدروب التي تلحس فيها القطط بقايا دماء الفئران والطيور الخجولة ولكني إلى اليوم لم أفلح.

غنِّ، قد تموت العصافير بفعل الصمت وتنشف أعماق الأشجار.

بدأت أغني. نانا موسكوري.

عندما أغني، فأنا أغني لأجلك أيتها الحرية.

عندما ترتعشين خوفاً، أصلي لك أيتها الحرية.

أغاني الأمل والفرح، التي تحمل اسمك وصوتك،

ستقودنا إلى قلبك أيتها الحرية.

غن يا ولد فاطنة الهجالة قبل أن تدفن شفتاك ويردم لسانك وتزم مثل حلزون عنيد ركب رأسه وسافر نحو الصخور الصيفية الجافة. غن ولا تتوقف إلا عندما تتماسك الأشياء الهشة. يجب أن تغني. لقد هربنا من المدينة التي تتعبك بخناجرها القاسية. غن. نغني الآن. أنا وأنتِ. ياه! رأيت وجهه خلف الضباب معلقاً بين شدو الطيور واستيقاظ الأشجار وقيام شمس الصباح. مريم! ها أنت تعودين وصوتك الفيروزي يملأني شوقا وحنينا.

امش بشكل مستقيم وما تحاولش تفهم.

امش قبل أن تتهم بالخطيئة الكبرى، وينزع ذكرك، ويدفنك ورثة الملك خازوق على صدرك. وتترك هناك في برودة القبر، تتحلل بهدوء. الدود الأبيض يدغدغ وجهك وإبطيك. تضحك من فرط الدغدغة، لكن تكاثر الدود يمنعك من هذه المتعة، ويمنحك فرصة الهروب من القبر. وحين تحاول، يكون نصفك السفلي قد تآكل. اجر. ضع رأسك بين يديك يا ولد فاطنة الهجالة واجر. السكاكين الباردة تلاحق فرحتك.

- كان يجب أن لا تهرب.

- أنت تزعجني يا سفيان أنا لم أهرب. جئت..

- لماذا تخافون التسميات؟

- ظهري يؤلمني، ولست مستعداً لاستفزازاتك.

- هه. مسكين يا ولد الهجالة الهارب.

- ظهري يقتلني. ارحمني.

في مطار المدينة البعيدة التي نسعى اليوم للعودة لها بعد أن سرقها منا القتلة، كان اليوم ممطراً. جئت أودعك خلسة قبل أن ألحق بك بعد شهر واحد. كان وقتها سفيان الجزويتي قد بدأ يفرض سيطرته على الكريات الحمراء في دمي. قلت بهدوء الأمطار التي كانت تضمخ قلبي:

- أخاف من إفتقادك ولكني على الأقل سأكون سعيداً بسلامتك في مدينة أخرى.

- لن أسعد إلا عندما تعبر البحر وتأتيني.

- أحلى ما في هذا الحب هو أنه أجمل مخاطرة تحصل لنا. أحذر منه.

- أعرف. اليائس لا يفكر ولكنه يقتل.

- مجنون ولكني لا أعتقد أن الأمر يصل به إلى هذا الحد.

قلتِ: يا حبيبي، الناس عندما يخسرون فرحتهم لا يبحثون في البقية. حينما اصفرت عيناه أخذ يلعب معي لعبة القط والفأر. قطع كتبي وأوراقي الصغيرة والمنشورات التي كانت تصلني منكم. حتى طفولتي مزقها. قال إن فيها رائحة الرجل الذي فض بكارتي أول مرة. حين رأى دموعه قد تحولت إلى صخور زرقاء تجمد حلقه. صرخ. صرخت. أنت تافه. أقل تفاهة منك. نزل بعدها مغمض العينين إلى الحفرة السوداء التي لم تكن تبعد كثيراً عن بيته الذي ورثه عن والده الذي طحنته شاحنة أبقار. كان أصغر اخوته. الذي يملأ أشعة الشمس والغيوم في الأكياس ويبيعها. الطالب الذي يهرِّب تمائم الحظ القادمة من بلاد الهند والسند. الثالث الذي انتزعت منه حنين حذاءه لأنه عاد بحرقة. والرابع الذي حول الماء إلى طاقة بديلة. تركوا له البيت. في الحفرة السوداء، أخبرهم أني كنت واحدة

من الذين يتخبأون في مخازن الإطارات المسروقة. في تلك اللحظة تمنيت فقط لو يفك هذا الصك الورقي الذي يجمعنا على التفاهات الزوجية.

ـ فليقطع عنا الهواء إذا استطاع.

ـ لو كان بإمكانه فعل ذلك ما تردد لحظة واحدة.

مسوني يا مريم الوديعة في العمق. تعبان وأكاد أقول عن نفسي لقد صرت رجلاً ميتاً. الشرطي أدخلوه في الدماغ منذ تلك اللحظة الملعونة. الزهراء الفولونطارية. صرختها. ماذا تبقى له أن يفعل أكثر من ذلك. لا أعتقد أن موتي اليوم سيفيده كثيراً. قد يشفي غليلاً ولكن مريم عاشت معي مدة كافية بأن تقتله من الداخل. قد لا يفرح لموتي، لأن ذلك سيحرمه من لذة التمتع ينزع الأطراف جزءاً، جزءاً. نصحني أن أبتعد عنك. قال أنك مازلت زوجته شرعاً. نظرت إلى وجهه وقتها، رأيت الهزيمة تنزل بهدوء من عينيه المتعبتين من قلة النوم.

عينا زوجك تترصدان حركاتنا في المطار. كان يتخبأ داخل لباسه الكاكي، يراقبني من بين زجاج المطار ذي اللون الغامق. نظارتاه السوداوان تحجزان كل أحلامنا الصغيرة وأشواقنا المدفونة. كل أحلامك التي أنهكتها سخافاته المزعجة. أمام رجل أمن المطار، ارتبكتِ. أعطيته الجواز بينما كان منهمكا في تفاصيل وجهك ثم إلى وجهي. تمتم:

ـ سياحة؟

أجبت بدون تفكير

ـ زيارة. أختي هناك.

ـ فرصة لتغيير الجو. C’est bien de voyager.

ـ Merci.

قبلتني. كان شرطياً لطيفاً. لم يحجز قبلتنا مع الممنوعات وترك

لنا فرصة قبل أن تسحبك الطائرة مني. سعل بلطف لينبهنا بضرورة التحرك.

- Bon voyage Mademoiselle Meryem.

انزلقت نحو العمق بينما رجعت نحو الشباك وظللت أراقبك وأنت تغوصين بين الناس. أتاني صوتك واضحاً قبل أن تأكلك حركة الناس.

ـ اتهلاً. ما تنسانيش.

ـ أبداً. أول ما تصلين ابعثي لي برقية.

ـ ما تنساش، أنا بانتظارك. أنا بانتظارك.

ـ آخذ الجواز وأطير وراءك.

من وراء الزجاج تمنيت لو تعودي إلي، لكن لم يكن بإمكانك غير الذهاب من جهة واحدة. أختام الجوازات كانت قد وضعتك في الجهة الأخرى. عندما التفت كنا قد قبلنا نهائياً بقدر الفرقة المؤقتة. بعد أسبوع من سفرك وجدتني بين الهجرة والجوازات أركض من أجل الحصول على جواز سفري. أتعبوني ولكني في النهاية توصلت إلى حل المشكل. في اليوم نفسه أكدت حجزي وفي اليوم الموالي لحقت بك، في قلبي برقيتك الأخيرة.

(Bien Arrivée. Je suis chez ma sæur. Je T'attends. Tu me manques. Je T'aime. Ne tarde pas s'il te plaît, viens vite.).

وأنا أضع بطاقة السفر في جيبي، تذكرني سفيان الذي قضى كل الأيام الفائتة نائماً.

ـ أنا أعرف لماذا تريد الذهاب.

ـ لو كنت تعرف لصلحت من وضعك. أسهل عليك المهمة. من أجل الدراسة.

ـ لا أظن. أنت مسكون بالسياسية.

- ما عليهش إذا كانت هذه صورتي لديك. لا أملك معك أي حل للإقناع. الله غالب.

- كلما حاولت أن أحاورك أراك تهرب.

- أنت مريض وكل ما تراه يحمل نظرتك.

- أنت هكذا، محترف في الهرب. ما عليهش.

تحصلت على جواز سفري على الرغم من الصعوبات التي وضعت في طريقي. المدينة لم يتمكلها بعد ورثاء الملك خازوق. ليست قفراً مغلقاً بالرغم من سفيان الجزويتي الذي يمارس اضطهاده الكبير ضدي، لم أشعر لا بالخوف ولا بالذعر. سفيان عندما يواجه موقفاً جمالياً لا يستطيع إلا أن يتكوم على نفسه ويخرج أظافره تهيبا ثم يختبئ وراء أكداس الرمل في انتظار الأوامر التي تأتيه عن طريق اللاسلكي الذي لا يبرح أذنيه. صحيح أني مازلت أكتب تحت رقابته واضطهاد عينيه لكني أعيش يومياً، كلما استيقظت صباحاً حلم كسره واندثاره وهذا يكفيني لمواجهته بمزيد من الإصرار والصبر والحب. تعليقاته المتكررة والمؤذية، تزعجني وتدفعني دائماً وبشكل آلي إلى تمزيق أشعاري. وحين أقدم على مثل هذه الحماقات، قبل أن أندم، يتنفس الصعداء ويشعر بانتصاره الكبير على أعداء الله والوطن. يجري إلى الورقة والقلم ويسجل كل انطباعاته في تقرير العمل الذي سيطالب بتقديمه. لا يمكن التخلص بسهولة من شيء مزج مع الدورة الدموية ولكنه في عمقه يعرف جيداً أن كل الذين سبقوه إلى هذا العمل قتلوا شر قتلة حتى لا يفشوا الأسرار التي سربت لهم وحدهم.

ياه! من أين تأتي رائحة المازوت؟ من يستعمله الآن لتسخين البيت في هذا الشتاء البارد؟ أول شيء شممته عندما نزلت بمدينة المنفى وحتى قبل أن أراك هو رائحة المازوت. حينما رأيتك من بين آلاف الرؤوس أنت وامرأة وجهها إسمنتي خمنت أنها أختك، نسيت كل الروائح التي استقبلتني في هذه المدينة القلقة. اشتعل قلبي فرحاً

وبدأت أحسب الدقائق والحواجز التي ما زالت تفصلني عنك. بدت المعابر طويلة وعمل جمارك الحدود ثقيلاً لدرجة خفت أن أموت بسكتة قلبية بدون أن أتمكن من تقبيل عينيك الرائعتين.

الجرح هدأ قليلاً ومعه توقفت القطط الضالة عن التقاتل حول كومة الزبالة التي كانت تغلق جزءاً كبيراً من الشارع الضيق الذي كنت أقطعه. حميدو. صديقي الوحيد في هذا الفراغ الواسع سيقوم حتماً بالواجب. كلما اقتربت من بيته، أشعر بالحياة تبتعد أكثر وبالموت يقترب بسرعة مجنونة، لا أدري لماذا؟ حميدو كان كالفرحة البعيدة، كلما كدت ألامسها، شعرت بالمسافة التي تفصلني عنها تزداد بعدا.

ـ أنت صامط، ما رقدت ما خليتنا نرقد. غم وريحنا.

ـ كم أشعر بالسعادة عندما تفقد أعصابك، فقط لتعرف قدر المعاناة التي أدفع ثمنها يومياً من جراء تدخلاتك.

ـ على الأقل لا أنغص عليك فسحة النوم مثلما تفعل أنتَ معي.

دغدغني مرة أخرى ليذكرني أنه ما زال يحتل دماغي بكامله، وليقطع عني لحظة اكتشاف تفاصيل جرحي:

ـ لماذا كل هذا الحزن يا عزيزي فاوست؟

ـ لو تدري يا سفيان؟ لكنك للأسف عاجز، عاجز حتى في الأشياء التي يمارسها الحمير براحة كبيرة.

ـ احترم نفسك والزم حدودك واعرف واش راك تقول يا ولد الهجالة! أستطيع أن أهدمك ببساطة.

ـ هل بقي شيء لم تفعله؟

ـ أنت لم تر شيئاً. الأفضل لك أن تتزن.

ـ عندما أكفر بربك تقول لي اتزن؟ أنا أكرهك وهذا حقي الأدنى على الأقل.

ـ قد يبدو في الأمر غرابة، لكن جزءاً مما أفعله هو أصلاً للحفاظ عليك. أنت لا تقدر جهدي تجاهك يا فاوست.

ـ للحفاظ على وظيفتك في دماغي.

ـ لنقل مصلحة مشتركة. لست سيئاً وأنانياً لهذه الدرجة.

لكن هذا الجرح يعذبني. رأسي تدور وأشعر بالرغبة القصوى للتقيؤ. وبيت صديقي حميدو ما يزال بعيداً. والسيارات تمر مذعورة في كل الأزقة. الشارع عام، ومع ذلك لا أثر للحياة فيه. شيء ما في المدينة يموت الآن؟

ـ الهرب أحياناً خلاص من ثقل الغاشي.

ـ قلت لك لم أهرب ولكني اخترت المجيء إلى هذه الأرض.

ـ أنا لم أقل هذا الكلام.

ـ قلتَ ما يشبهه.

تمسح شاربيك المنكسرين كجنرال حقق انتصاراً صغيراً.

ـ ليكن. يجب أن تدفع ثمن هروبك يا فاوست.

ـ أنا أدفع ثمن حريتي الشخصية والبؤس الذي سلطتموه علي.

ـ لم نسلط عليك إلا تستحقه أنت وعصابات أعداء الشعب.

ـ هل تصدق حقيقة ما تقوله؟ انزل للشوارع واسأل أي شخص تلتقطه عمن هو عدوه، سيؤشر لك.

سبحان الله. يقتلونك ثم يسبقون الجميع للجنازة والقيام بالواجب. لم أعد أفكر في الجرح الذي على الظهر ولكني فكرت في ضرب رأسي بأقصى قوة ممكنة على أقرب حائط حتى ينشق العظم فأدخل يدي وأخرج بعنف قامة سفيان الجزويتي الناتئة وأرميه في أول مزبلة على مرمى اليد.

الفصل الخامس

أبجديات الكذب الأبيض

مريم كانت هنا قبل أن تندثر بشكل فجائي كالنيزك.

بدأت حرارة الفراش والجسد تصعدان إلى الرأس وحركاتي تفقد اتزانها. يجب أن تنام بعمق. مريم بين يديك. إنها الليلة الأخيرة في هذه المدينة، وبعدها ستسحبكما الطائرة إلى فرحة الطفولة الأولى والبلاد التي في القلب. يجب أن أعشقك حتى الموت، وحين يعود صاحب العيون التي تحجز أحلامك الصغيرة، لن يجد غير روحين قد تبخرتا مثل النّار. جسدك ما يزال قوياً وجميلاً رغم مصائب الدنيا التي حفرته ذات شتاء، حين فوجئت بهم يختطفونك من أحد الشوارع الضيقة. الرجل الذي يحجز أحلامك تحت النظارات التي عوضها من جديد بالزجاج البصري الأسود قد باعك. قلت لك دعيك من ربهم. كان مريضاً بك. هو الذي يقول ذلك كلما أصيب بحالات الكآبة ويعثر على ملامسنا المشتركة في كل شيء. في الكؤوس، فناجين القهوة، العرق البيروتي والدمشقي، والنبيذ الأحمر والأبيض والوردي وعلى بقايا حركات القطة الصغيرة التي تنام في زاوية ما من السرير، في نهاية أرجلنا ويشعرنا فروها بالكثير من الدفء. ستصدمه رائحة الفرحة التي مورست في غياب خزرة عينيه الصغيرين. عقدته المزعجة. حين يسخن من كثرة الحقد والغضب، تغادره الطفولة وتحتله رائحة الدم. يشهر مسدسه على كل الأشياء بدون أن يستطيع التركيز ويطلق النار بشكل أعمى على الكؤوس، الألبسة، الأواني المطبخية، السرير والبوقالات الموضوعة

بشكل عبثي على أحد رفوف المطبخ. يحلم بيأس أن يحرمنا من الاندماج كنجمتين هاربتين. أنا آي. من أين تأتي هذه الملوحة التي تملأ فمي؟ ربما كانت تمزقات الجرح هي السبب. متأكد من أنه هو الذي فتح النافذة على شعاع أسود، وخلع الباب. البرد لا يخلع الأبواب يا مريم. نحن داخل هذه المدينة منذ أكثر من سنة. ما معنى ذلك؟ لعبة الحرب النفسية. ياه! كل شيء يتحول بسرعة كبيرة. لحظة الصحو تجتاحني شيئاً فشيئاً. بان لي جسمك بكامل طوله. خصرك الممتلئ حتى الرغبة. نهداك اللذان يفيضان فوق استدارة اليد المرتعشة. قلبك الذي يزداد خفقانه كلما لمستك. تلتهب الشفتان حينما نتهاوى على بعضنا بعضا كأمواج هربت صوب الصخور ثم تشلأت على الشط. غمغمت بصوت لا يكاد يسمع، داخل موجة اللذة المسروقة:

- Je T'aime mon Amour

- حبيبتي.

كلماتك كانت تتمزق مثل الألم. بدأ ضباب الصمت ينزل بقوة على القلب المتعب. هوامش اللحظة تذكر بالحديقة التي وجدنا فيها نفسينا فجأة، وحيدين تحت رحمة شمس مقلقة. بكيت مثل طفلة وجدت في غابة أشجارها سوداء مثل قلوب الناس.

- يا محمد!! لقد رأونا.

لنهرب. تعال من هنا. الكلاب لا ترحم. أجر من هنا. سيوصلون الحكاية إلى ناس كثيرين في هذه المدينة.

- الناس.

- ومع ذلك أشعر أن لا أحد غيرنا في هذا المكان.

- عيونهم تملأ كل الخواء.

كنت تحسين أن في عيون الذين يمرون عبء على وجودنا وحيدين في هذا المكان. قلتُ لك يجب أن نخرج. اتبعيني. اجر.

وغبنا في تفاصيل المدينة البعيدة التي تنام على أحد أطرافها أحلامنا الموءودة. مشينا حتى قطع الفرح والذعر أقدامنا. في لحظة الموت الذي ينتعلها ويلبسنا يومياً كنعال مطاط وخردوات إضافية، تذكرنا أنه يجب أن نصر على حقنا في الفرح والحياة باستماتة. ضحكتِ.

- هل أعجبك هكذا؟

- سأكتب أجمل فرح في عينيك.

- أنت تخيفني.

- بالكتابة عنك؟

- إنهم جبناء يا حبيبي. يحنون إلى البؤس. سيتحول شعرك الجميل وكلماتك الدافئة إلى رصيد لتمويل قاموس من الكذب والموت والرياء. حولوا كل شيء حتى وجه الله وجماله ورحمته.

- هذا هو تراث الجهلة والقتلة يا مريم.

هربنا من قسوة عيون الأحياء إلى وجوه ناس المتاحف. في الجانب المختبئ من متحف المدينة كان وجه الكاهنة عبوساً وألبستها القديمة بدأت تتفتت من الصدأ والحزن والوحدة. تعبنا من الدوران داخل الأبهية والعصور فذهبنا لنرتاح قليلاً. لم نجد مكاناً نجلس فيه. رآنا كناس المتحف. قال: رجاء عدم الجلوس، الكراسي مطلية. ذهبنا عند الباب وارتحنا قليلاً على رخام الأدراج. أعطيتك صحيفة قديمة وبدأنا نتبادل الكلمات المتعبة وكل واحد منا يخبئ في جيبه عيون السيد الذي حجز أحلامك تحت نظارتيه السوداوين وتحت فشله المريع. شيئاً فشيئاً، بدأت لحظة الفرح تعود. اقتربنا من بعض أكثر. لكن فجأة رأينا عيني صالح ولد لخضر لصنامي وهما تتكوران على الأرضية مثل كريات الأطفال محدثة صوتاً أكبر من حجمها. قبل أن نخرج من ظلمات المتحف ونغادره نهائيا،

اشتريت لك قطعة ذهبية ختم على صفيحتها الحرف الأول من اسمي واسمك. الصدفة تصنع أحياناً الأشياء الرائعة.

أشعر بحنان صدرك الذي شققته الحفر السوداء. قلت مغمغماً كطفل يملأ فمه بثدي أمه ويطلب خبزا.

ـ أكره صمت الأشياء المريب يا مريم.

ـ ياه. كم أنا غبية. نسيت الأغنية الجميلة.

ـ يبدو أن زولا لا يترك لك وقتاً فارغاً.

ـ لا. الليلة لنا. تسليت في غيابك فقط.

قمت بكامل طولك. تدحرجت نحو الخزانة القديمة. أخرجت من الصندوق الخشبي الصغير، شريطاً قديماً. نسيت قسوة الصمت الذي عاد مدججاً بقلقه، وبدأت أتأمل عريك الجميل. تعرفين يا مريم أني لا أحب المرأة العارية ولا أدري السبب الحقيقي لهذه العقدة، مع ذلك بدوتِ لي هذه المرة كتمثال مرمري تلامسه الأيادي المرتعشة بخوف وحساسية. اللذة تجتاح كامل جسدي. أبحث عن تفاصيلك بأنامِلي التي لا تستقر على مكان فلا أجدك إلا أنت، امرأة كلما لامستها يد اشتعلت كالحطب الجاف.

مريم أيتها الغالية التي صارت الآن بعيدة، لن يفاجئ فرحتنا في الفراش. كان يجب أن أجدك لأقول لك عن كل شيء. كان يجب أن أسلك الطريق الصح في المنعطف. المفترق الملعون. أنت تخافين هذه العيون، كلما تسربت من ثقب أحد الجيوب، تكورت وراءنا مثل كلب سمين إلى أكثر الأماكن حميمية. شعرت بها حتى في الطائرة التي أقلتني إليك، في البلاد البعيدة. كانت بنفس الأمكنة، تملأ فراغ الأجواء التي كنا نقطعها بسرعة تفوق 900 كيلومتر في الساعة، على ارتفاع بارد جداً، لم أعد أتذكره. أتذكر فقط الطائرة، التي حين بدأت تهتز، ارتعدت رجلاي وشعرت بالموت يدخل من رأس إصبعي الأكبر الذي يشق دائماً طرف الحذاء الجلدي. وحين عدت، في

أخريات الليل، وجدتك في البيت. كنت سكراناً. قذفني مقهى القنديل إليك بعريي وانهياري وخوفي. في الفراش. نزعت ثيابي المبللة. أردت أن أتكلم. وضعت يدك على فمي. الباب نصف مفتوح، والطاقة يتسرب منها شعاع أسود. ساح حليب نهديك على شفتي، وانزلق في حلقي بطراوة. كنت عاجزا عن الكلام. أدخلت الشريط في المسجل ثم دخلت الحجرة المقابلة لتخرجي بلباس شفاف أبيض كنا قد سرقناه من أحد المحلات الباريسية بنصف ثمنه ذات صباح بارد، كنا نبحث عن صديق رمته الصدفة على أطراف أحد هذه الشوارع. قلت لك، عجبك. قلتِ، جميل جداً. وضعته بين يديك كالطفل وأخذت تركضين. سننام به أجمل ليلة في إحدى مدن العالم الواسعة. ومع ضحكتك التي لونتها أمطار ذلك الصباح الشتوي، كان المترو قد سحبنا بقوة من قلب الشارع. حلاوة الحليب التي بالحلق أدخلتني إلى تفاصيل الأغنية التي بدأت ولا أحد يعلم متى تنتهي. غمغمت مرة أخرى.

- أحبك.

- قلبي لك يا مريم.

الفصل السادس

ظلال الحجر

ـ لست هنا لأستشيرك حول بقايا سلالتي؟

ـ فاوست تعقل وتنبه لمرضك القاسي. أنت مريض بالوهم مثل هذا الدون كيشوت الذي تدعى أنه جدك.

ـ كلامك وكلام محاكم التفتيش المقدس واحد.

سحبني الشارع الخلفي نحوه. كانت الزبالة معرمة كالجبال، والجرذان تلعب مع الأطفال لعبة الغميضة. تدحرجت متكئاً على أحد الحيطان الهرمة. رفعت رأسي. هاه. رأيت إعلاناً كبيراً، يملأ نصف الحائط المواجه لي: جانيتو ـ جانينا. *الفلم الهندي الذي أبكى الملايين* وما يزال يزحف نحو عيون المليار الذي يقطن وراء أسوار الصين. الأفلام الهندية الآسرة. صور الإعلانات كانت تغلف كل حيطان المدينة. يعلموننا كيف ننظر إلى قدسيتنا البدوية بابتذال.

ـ يا سيدي فاوست، لا تزعل مادام الأمر لا يهمك. نحن نجلبها للناس الطيبين، الذين يحبون أوطانهم وأهاليهم.

ـ أنتم تنومون الناس وتكذبون عليهم يا سفيان الجزويتي.

ـ أنت تسخر يا فاوست لأنك يائس من هذه الدنيا القلقة التي لم تفهمها جيداً. لغتك الوحيدة. تحتاج إلى بعض البراءة.

لسنا في حاجة إلى من يعلمنا البراءة. على كل ليس سفيان الجزويتي. هذا الشرطي الصغير، الذي يلبس النياشين الجميلة وهو

يحاول أن يقنع نفسه والآخرين بقيمته. أنا متأكد أنه يشعر بالوحدة القاتلة التي يحسها الذين يحكمون رقابنا. لهذا طموحه الوحيد في هذه الحياة هو أن يتسلى بقتل فرحي في هذا الشارع الواسع ويحرمني من متعة اكتشاف الشمس التي تحتضر تحت جلد المدينة.

رب هذا الجرح، يوقظ الرغبة الكامنة في للموت.

ـ كان بإمكانك أن تظل مواطناً صالحاً يا فاوست ولكنك رفضت وتظن بأن التاريخ سيحفظك من التلف. التاريخ لا يحفظ شيئاً إلا نرجسيته.

ـ ما الذي أيقظك هذه المرة فيّ، أنا لم أطلبك.

ـ لأذكرك بمصلحتك. فاوست حبيبي، كن معتدلاً.

ـ هل تعرف معنى كلمة حبيبي عندما تخرج من شفتين صادقتين؟ وهل تعرف معناها عندما تخرج من لسانك الأفعواني؟ لماذا تحشر أنفك. كنت نائماً في دوائرك المغلقة، منغمساً وراء المتاريس التي وضعتها للاختفاء من دمار قادم أنت لا تعرف مصدره ولا تاريخ حدوثه.

ـ يجب أن تفكر باستقامة يا فاوست. وظيفتي أن أساعدك على ذلك.

ـ تريدني أن أخرس نهائيا وأن أزم فمي أبداً.

ـ أنت تعرف أن وسائلنا قوية. اختباؤك في المخزن لم يفدك كثيراً. أخرجوك ووضعوك على الطاولة الحادة كما فعلوا مع بقية أعداء الوطن والشعب.

ـ على الأقل ابحث عن كلام آخر.

ـ أنا هكذا، أؤخذ ككل أو أترك ككل.

الآلام تزداد حدة يا مريم.

هل كان من الضروري أن تضيعي في السوق الشعبية؟ عيون

زوجك يا مريم قاسية. ها هي ذي تمسح الأزقة زاوية زاوية. وتتشمم الأحياء الضيقة حياً حياً. وها هي الآن ترتشف كالنصل على الظهر. بالرغم من أنها هتكت حجاب الضلوع لم أشعر بالألم الذي انتابني وأنا أواجه إعلان الطفل المريض وهو يسخر بصراحة من أحلام المارة الذين لا ترسو أقدامهم على مرفأ.

ـ أنت تقول أي كلام يا فاوست يا مسكين. يبدو لي أنك على مشارف الجنون يا ولد فاطنة الهجالة.

ـ هل تعرف يا سفيان أني أكرهك كدم الأسنان.

ـ هذا لا يحل مشكلتك يا عزيزي فاوست. اهتم قليلاً بحالتك المستفحلة هذا أجدى لك وربما لي أيضاً.

ـ كان يمكن أن تكون مواطناً رائعاً وإنساناً طيباً، تداوي هذا الجرح، لكنك مع الأسف... مجرد سفيان الجزويتي.

ـ لست أنا من طعنك على كل حال.

ـ لكنهم مزقوا لحمي أمام عينيك ولم تفعل شيئاً. أين كنت؟

ـ لسانك أوصلك. أنا لم أر إلا اليد التي دفعت بالسكين عميقاً في ظهرك ولكني لم أر الوجه لأنه لم يكن يهمني أبداً.

يحدث أن تكون صادقاً يا سفيان المسكين. لكنك جزويتي، والجزويتيون لا يعكسون إلا حالة دمارهم وخساراتهم الفادحة في الحياة. يتهم جدي دون كيشوت بالشذوذ ولكنه في العمق لا يتكلم إلا ليخرج جثة المرأة القبيحة التي تنام في تابوت جسده البارد. قحبة الماخور التي اتهمتك يا سفيان بالنذالة والحقارة، وزوجتك التي طلقتك بعد أسبوع بتهمة إتيانها من حيث لم يأمر لا الله ولا الرسول، تعكسان حالة انهيارك وانكسارك. أنت عاجز حتى على مضاجعة امرأة. مسألة بيولوجية لا تحتاج إلى وعي كبير لممارستها في أشكالها البدائية. فاشل يا سفيان الجزويتي. حتى عينك الزجاجية لا تستطيع أن تهبك مكر كولمبو بالرغم من تقويسك لها بافتعال ظاهر.

ـ فاوست؟ أنت تستفزني ولم أعد قادراً على تحملك. يفضل أن تحترم أشيائي الحميمة يا ابن فاطنة الهجالة.

ـ مسكين أنت يا سفيان. مثل الجنرالات تماماً، تشعر بوحدتك. تتحسس مسدسك إثر كل خرخشة، حتى لو كان مصدرها مجرد ذبابة. تسليتك الوحيدة هي محاربة الحقيقة وقتلها في المهد.

ـ لست معطوبا إلى هذا الحد. تقول جنرالْ وكأنها كلمة سائبة؟ قلها واملأ فمك. يوم تطيح بين أيديهم يوريوا لك الزنباع وين ينباع.

مريم. في هذه الخلوة التي تشبه الموت، يملأني وجهك المضيء. عندما تحب امرأة كل المحيط يصير ثانوياً. ورثت هذه النزعة عن جدي دون كيشوت الذي محبا للأميرة (الفلاحة) دولثينايا حتى الموت. هل كان عليه أن يتحفظ قليلاً كما يقول بعض الذين أحبوه؟ لم يكن يملك شيئاً آخر يمنحه غير الحب، فلم يتردد. من أجل امرأته خاض أقسى الحروب ضد كل مسوخ المدينة. وعندما شعر بالخديعات تحيط به من كل مكان، خرج حازماً في يديه بساطة سانشو دي بانسا بحماره الثقيل، وسافر بعيداً عن رائحة قلعة الجزويتيين وورثتهم رافضاً أن يتحول إلى أحد الدوقات الهرمين، المهزومين. جدي. مسحوا وسخ الأرض بسحنته الضعيفة ولكنه ظل وفياً لابتهاجه. لم أرث منه غير حب الحياة واستماتته من أجل ذلك كله. جدي لم يتوان عن رمي نفسه في عمق النار بحثا عن صفاء الحب المستحيل.

ـ لكنه لم يوضع على طاولة مدببة مثلك.

ـ ما هذا التغير؟ أنت تسمني ببطولة لا أستحقها

ـ لا. أنا أقول الحقيقة فقط.

ـ أنت لا تلعب لعبة جدك القذرة. أهبل تعيش.

ـ تعميماتك مدسوسة. لا يمكنك أن تقول شيئاً جميلاً.

ـ لو كان ذاق جدك من وجبات الطاولة لعدل عن حبه.

أنت تدغدغني وتريد أن تدفعني إلى دغدغتك بلطافة. أتخيلك تتلون مثل الحرباء. عينك الزجاجية ابيضت. أنفك المنغولي مسح بشكل نهائي. عاجز حتى عن أن تكون شرطياً «ناجحاً». تقليدك لكولمبو لا يفيدك كثيراً. يفقدك تميزك لأنك لا تعرف شيئاً غير تلقي الأوامر بصدر مفتوح وتنفيذها فوراً بمجرد تلقيك الإشارات اللاسلكية من هذا الجهاز الذي لا يبرح أذنيك. تجر، بتثاقل، حذاء عسكرياً قديماً، سرق من أحد الجنود على إحدى الجبهات المنسية. أعطوك مسدسا آلياً أوصاك مسؤولك المباشر أن لا تضغط على الزناد إلا عند الحاجة. ومن فرط الفضول الذي أكسبوك إياه، تتمنى أن تستعمله كيفما قال لك رأسك. لا يهمك بتاتاً أن يخترق المعدن الأصفر وجوه الأطفال الغارقين في لعبهم القديمة، المصنوعة من الخشب الذي سرق من الأقبية العتيقة.

وحين أعميها بالشرب، أشعر بك تخرج مكرها، أو لنقل تتخبأ وراء أكياس الرمل في انتظار الصحوة التي تدفعك حتماً إلى ارتكاب الحماقة الكبرى. تصور يا سفيان، أتمنى لو ترى نفسك في مرآة كبيرة. ستتحقق حتماً من كلامي. فأنت حين تنزعج، يمحي أنفك المنغولي، وتضمر كل ملامحك وتتحول إلى جرو. مجرد جرو ينتفخ عبثاً ويتمنى أن يجد نفسه حين يستيقظ دباً أو كلباً مهماً، وتتحسس لعبتك حتى قبل أن تغسل وجهك صباحا. أراهن أنك الآن تفعل ذلك مثلما يفعل الذين سحبوا جثتك من قريتك إلى دماغي. في يديك مسبحة مكية وامرأة مطاطية وصلتك هدية من أسواق لندن الرخيصة. تعاشرك في وحدتك أيها الرجل الوحيد. تخرجها عندما تتكالب فيك الرغبات المحمومة، ثم تنفخها وتضعها بين رجليك حتى تفشها نهائيا من كثرة الضغط واللمس والدك اليائس. أقول الرغبة، والرغبة فقط لأنك لا تستطيع أن تعيش لحظة الفرح وإلا ما كنت حجزت نفسك داخل دماغي، بين الدوائر الرمادية، والموجات الكهرمغناطيسية والسيلانات اليومية المقرفة بلزوجتها، والأفكار الملونة التي تنتابني أحياناً.

هذا الجرح الذي التأم في الدماغ، يدوخني من حين لآخر. هذا القفر البارد، يذكرني بتلك الشتاءات التي سكنت دمار الذاكرة. كنت طالباً في الجامعة، كانت الزهراء الفولونطارية عاشقة استثنائية. حين انفجرت جدران الفولاذ القاسية، هربنا مع الريح إلى مخازن الإطارات النتنة التي تحولت فيما بعد إلى مخازن أسلحة فتاكة. مريم كانت تعمل جاهدة على رفض حالة الموت التي فرضها عليها زوجها صالح ولد لخضر لصنامي. كانت رغبته القصوى هو تحييدها خوفاً على أمها الوحيدة التي كانت تعاني من مرض القلب، هكذا كان يحاول إقناع الجميع. وانتهى به الأمر إلى تسليمنا إلى أعماق الحفرة السوداء واحداً، واحداً. مسح يديه من فرحتنا ومن دمنا. حين سألته مريم عنا وعما حصل لنا. قال لا أعرف. ثم تحولت المسألة إلى تكتيك يفرضه التمويه السياسي، حفاظاً على حياتنا. صممت مريم أن تعرف أكثر. تتذكرَ عقدة صغر عينيه وقصر قامته وأزمته الحادة، كونه لم يكن أول من زار جسدها وأن هناك من فض بكارتها قبله. مر على تلك الهلوسات زمن بعيد كهذا الشعاع الجميل الذي كسر ثم وضع في أكياس الخيش وصودر إلى الخارج. في ذلك اليوم، حيث دخلتُ الحفرة القاتمة، تسربتَ أنت وأنا على الطاولة المدببة، مشدود إلى صرخة الزهراء الفولونطارية وهناك سكنت الدماغ بكل أشيائك الثقيلة. دخلت بصعوبة كبيرة من بين شقوق الرأس مثل رجل بدين يفشل أو ينجح بشق الأنفس، في اقتحام أحد الأزقة الشعبية الضيقة جداً، تعذبه انثناءات جسمه الثقيل والمتعب وعرق عورته الذي سال متحللاً عبر كامل جسده. قالت مريم وهي تحاول ردع صالح: أنت تخون أحلام أصدقائك. أصر. يا بنت؟ أنت لا تعرفين ما أعرفه. لماذا هذه التعقيدات. تكتيك. كل ما يقع هو باتفاق مسبق معهم. عيب عليك يا مريم مثل هذا التفكير الرجعي. ثم بكى. لكنه حين اختبأ في حجرة المرحاض الضيقة لممارسة العادة السرية مع صورة مارلين مونرو، انفجر ضاحكاً بشكل هيستيري من سذاجة مريم. اندهشت من هذه التكتيك السادي

غير المقنع. حتى الذين يمكن معرفة الحقيقة منهم، إما غابت أوجههم أو تراجعت ألسنتهم حتى تعمقت بين ألياف الحلق. يتنفسون دمهم ويشعرون أن الدبابات والطائرات الحربية قادرة على النزول حتى في كؤوس القهوة الصباحية وعلى محارم الأنوف التي ألهبتها برودة الشتاء القاسي. قلت لك أنت تتهمينني بعينيك. قال لها. انظري. ثم أراها وجهه الذي تحول إلى بطاطا معوجة من كثرة الكدمات السوداء التي تملأ عينيه اللتين ألبسهما عوينات طبية. الشرطة هي السبب. دائماً الشرطة. لكنه حين تخبأ مرة أخرى في التواليت، مع سيلانات العادة السرية، قهقه بأعلى صوته: حق محمد هذه البنت سانجة، تصدق أية حماقة. فقد دفع لأحد أصدقائه مائة فرنك، بالعملة الصعبة، مقابل أن ينفخ له عينيه. مجرد نزوة. اضرب بقوة يا ربك. اضرب ما تخافش. بقوة. إذا كنت تريد المائة فرنك. أنت لا تسأل. يجب أن تضرب فقط. يداك قويتان لا ترحمني. ونفخه الصديق في ظرف ثانية وعاد إليها من صفرة الشوارع في محاولة لإقناعها باضطهاده من طرف الأمن. عرفت في زمن أتى متأخراً أن التكتكة، دفعتها هي بدورها إلى أعماق الحفرة السوداء. وظل يصرخ في وجهها كلما ذكرته بخيانته لأصدقائه ولحميمياته: أنتِ التي أردت. قلت لك. دعيك من ربهم ولكنك لا تسمعين لكلامي. أنا أكرههم. يا رجل هذه زوجتك، ذكره رجل الأمن. لكنه أصر مردداً، المصلحة العليا فوق التفاهات الشخصية. وسحبتك أفواه السيارات السريعة التي لا تتوقف عند الإشارات. تذكرت أن عفويتك لم تكن مخطئة. قلتِ لي: إنه يضطهدني. أشعر أنه شخصية مزيفة. وحق محمد سيبيعكم في أول فرصة. المنشورات التي يجدها في يدي يمزقها وهو يرتجف ارتجافة تذكرني بمرضه السري. يتجمد وجهه. أخاف منه. تتصلب شرايينه، ويسيل لعاب أصفر على أطراف شفتيه. كان يطمع في أن يصبح أحد رؤساء محاكم التفتيش، ويعيد محاكمة دون كيشوت لأنه يمت إلى ولد فاطنة الهجالة بصلة كبيرة. في ذلك الزمن الذي لم يمت تحت ركام الأوقات وساعات الصراخ.

قلت لك. مريم لا تخطئي في نية خطيبك، طيب ويتيم. كنت أكذب.. طز. قلتِ. يتمه لم يعلمه إلا النذالة. عمي يحبه. أخشى أن أتركه فيرميني أنا وأمي في الشوارع كالخرق البالية. عمي استعار زوجة أبي ليمارس عليها جوعه الجنسي. صالح يا الصالح؟ كه. كه. في أكثر الموضوعات حساسية يستشهد بكتيبات Bleck le roc وMiky Mouse وKiwi وتضحياته الوطنية وأحيانا بـ Lucifera وZembla(*) وفي اليوم التالي حين يواجه وجهه في المرآة بانزعاج كبير، قبل أن يخرج، يضع تحت إبطه الأيسر كتاب رأس المال في طبعة فرنسية أنيقة، لم يقرأ منه إلا الكتابة الإعلانية المرسومة على الغلاف. يرفض الجدل مع أي رجل يصادفه في طريقه. وفي الناحية الخلفية للسيارة يضع المؤلفات الكاملة. وحياتك كل ما يحدث هو تكتيك. هكذا يقول. انظري إلى عيوني. الشرطة دائماً هي السبب. في وقت كانت الأحداق ذات الاتساع المريب تخرجنا كالجرذان من تحت كومة الإطارات المسروقة. رماد أوجهنا بقي هناك يملأ فراغات المكان. تكتيك يا مريم وحق عينيك. اتفقت معهم. اتفقنا أن يبقى أحدنا خارج دائرة الشبهات. وبالرغم من الكدمات التي على الوجه، كان صعباً عليكِ هضم المسألة بسهولة. خصوصاً وأنه، في غمرة الموت الأزرق، كان يجد فرصتة للقهقهة بسخرية.

البرد. الضباب الداكن، لا أرى شيئاً سوى وجه *شاشي كابور* وإعلانات الأفلام الهندية التي تملأ الشوارع الرئيسية. أتذكر ملامحك التي بقيت صافية بالرغم من غصن الجدري الذي أصابك في طفولتك ويتسلق خدك الأيمن.

آي. آي. حككت جرح الظهر بأظافري. صعد الألم من أخمص القدم. صورة *شاشي كابور* مزعجة بحضورها الكبير. الفلم الذي أبكى الملايين. ابتسامته مصطنعة تقارب ابتسامة سفيان الجزويتي.

ـ حتى السينما فيها سياسة يا ولد فاطنة الهجالة؟

(*) مجلات مصورة للشباب.

- وأنت لا شيء يغيب عنك.

صمت لحظة. شعرت به منهمكاً في كتابة تقريره الليلي عن كل حركاتي. يتحسس مرة أخرى اللعبة المعدنية والأقلام الكثيرة.

- مع من طحت يا فاوست؟ تلعبها ما تفهمش وأنت تشتغل لصالح دوائر أجنبية صارت اليوم معروفة ومفلسة.

- تذكرني بالطفل الذي كان يطوط نكره في الإعلانات الجنسية في الشارع الرئيسي. إنك تشبهه في كل شيء إلا في براءته المسروقة.

- أنت دائماً تكرر نفس الأسطوانة. آه لو كان ما قطعتش وعد أمام المسؤولين نوريك؟ أحمد ربك.

- أنفخ يا سفيان. واش راح تدير؟ دير عشرة وأقرص.

يا سيدي أنت مقحم داخل هذه العلاقة التي أصبحت فجة بوجودك. نذالتك تمسخ هذه الشوارع التي لست أدري هل هي التي كانت تسير وتتدحرج أم أنا. أنت سفيان لا تملك الآن إلا أن تصمت لأني أعرف مسبقاً أنك لا تستطيع تفجير هذا الدماغ إلا بأمر تتلقاه في شكل إشارة من اللي فوق. لا يفيدهم موتي الآن في شيء. الناس اللي فوقك يا سفيان أذكى منك.

- ما فوقي إلا ربي.

- أشك. ربي ليس بهذه النزعة المرضية.

- تلميحاتك ستدفع ثمنها.

- هل هناك ثمن أسوأ مما أعانيه؟

أهملتك وواصلت تدحرجي بدون أن أنسى أن أتسلى بإعلانات الفلم الهندي، بوجه *شاشي كابور* الجميل و*شارميلا طاغور* والراقصة *هيلين* وهذا العالم الغارق في الكذب المدهش والجميل.

شعرت بالظلمة التي كانت قد بدأت تفرض نفسها على عيني،

تزاد قتامة وضراوة شيئاً فشيئاً، وضربة النصل تبرد وتهدأ بين عظام الضلوع التي هتكت أغشيتها والجرح يتسع ويتحول إلى غيمة عصرت نفسها حد السواد قبل أن تحبل بالبروق والرعود والمياه الساخنة.

الفصل السابع

خلوة الخائف

لولا هذا الألم القاتل؟ علي أن أنسى كل شيء إلا أنت لكي أتمكن من الوصول إلى دار صديقي الوحيد في المدينة، حميدو.

أذوق من شهد لسانك. ياه، ما أقوى جاذبية عطرك؟

إيرين باباس! أي صوت هذا وأي سحر؟

صوت يوناني يأتي من بعد سحيق. داخل الغيمة البنفسجية، في الفراش الذي يشتغل فيه جسدانا، تزحلقت الأغنية الجميلة بين مسامات الجلد. دخلت كشعلة نار، مخلفة وراءها علامات الحرائق وبقع الزيت المغلي. تدغدغنا الفراشات الملونة تحت الجلد الذي كانت تنفضه الرغبة.

الساقية تبدأ في التكوين مثل الجنين.

يا بيرو الصغير.

هي قطرة أو قطرتان من مياه المطر.

وأنت لؤلؤة أو لؤلؤتان من الحياة.

الساقية يا بيرو الصغير تشبهك.

لكن الذي يحزنني،

وتعود أنت يا بيرو الصغير إلى التربة.

مدت مريم يديها. كانت الفراشات قد بدأت تنفض أجنحتها بسرعة أكبر. لمست نبض القلب. كان يدق حذراً من خوف التوقف.

سرعة الدم تجنن، وسفيان الجزويتي في غيبوبة تامة. كانت تخشى أن يتوقف القلب بشكل فجائي. المفاجأة المرة. تمد ساقيها، يصعد الثوب الأبيض الشفاف الذي سرقناه بثمن متواضع من أحد الأزقة التي تنام عليها أفراح أحد الأصدقاء المقتولين. يصعد نحو سماء برتقالية بدون نهايات محتملة. أنظر بدقة في تفاصيل جسمها الناعم. أتجرأ على مداعبة حلمة نهدها الأيسر رغم خوفي من الاحتراق. كل شيء فيها يبرق بإشعاع غير محدود. لو تتحول النبوة إلى النساء. ستكون مريم مسيحاً جديداً. عطرها الخاص يأسرني ورائحة جسدها تشبه رائحة النباتات المتوحشة. هي. مريم بنت فطومة. بنت الساموراي الذي انتحر في زجاجة نبيذ. نهداها يستنجدان بصدري. هي الطفلة التي قاومت سخافة النظارات السود إذ نزل من دمها إشراق غريب كما لو أن السماء غيرت فجأة لونها المفضل، بلون بنفسجي رائق. كانت الشمعة الحمراء الموضوعة على ظهر تليفزيون عتيق، تحترق بهدوء مثلما حدث معنا في إحدى الكنائس، ذات عيد ميلاد، من سنة جديدة لم نعد نتذكرها. تتمايل شعلة الشمعة الملونة بالآلف الألوان، كجناحي فراشة أثارتها شمس الربيع. عقب السيجارة الذي دخلتُ به حين قذفني مقهى القنديل، يتدحرج بجانب السرير تحت نشوة الحرقة وشهقة الفرح. في لحظات السكر، هناك حالة واحدة ووحيدة، شفافة وصغيرة جداً مثل قطعة كريستال نادرة. حادة كالشفرة. تظل تحفر وعينا ولا تغيب أبداً إلا إذا ضمرت أعيننا وأنهار جسدنا. الدخان. جسدك يتلوى أكثر. تنبعث رائحة الشبق من انثناءاته. تخرج حرقة رغباتي المدفونة تحت أكداس غبار القرية وأتربتها وروث أبقارها ونهيق الناس المزعج، وجدي الذي يركب حصاناً هرماً في يده سيفه المكسور. كسرت فرحته متاعب الجزويتين. لم يهرب، مع أن أبواب قرطبة وغرناطة كانت مفتوحة. والبحار تستقبل الهاربين بألواحها الخشبية. صمم جدي دي لامنتشا أن يركب حصانه الهزيل ويخوض الحرب الخاسرة. جميل أن نخوض الحروب دفاعاً عن النفس

وأجمل من ذلك كله أن نخوض حربا نحن أدرى الناس أنها خاسرة ولكننا نملك على الأقل شجاعة خوضها. العيون التي لا تتعب تعيدني إلى قفر القرون الجافة. تنزلق اليد بين خواء الفخذين الممتدين باستقامة. تتأوهين وتنفتح أبواب اللذة المغموسة في الألم. تتأوهين مرة أخرى ثم تغيبين وسط تلك المدينة الكبيرة التي كلما حاولنا أن نفكر خارجها سحبتنا حاناتها وأقبيتها ولغو ناسها، إليها. تغيب أعيننا الطفولية تحت ساقي التمثال الغريب، لضابط مجهول سقط في حرب لا أحد يعرف اسمها ولا اسمه. هكذا، نزل هيكله فجأة مع نزول المارشات العسكرية التي فاجأت المدينة في ذلك الشتاء القاسي. كل الأشياء المخيفة تأتي عادة مع فيضانات الشتاء. ينزل المطر دافئاً ثم سرعان ما يتحول إلى عاصفة. المطر يا مريم يقوي نشوة الرقص. غمغمت مبتلة من الرأس إلى أخمص القدم.

ـ أحبك. أحبك.

ـ وأنا! مفقود فيك.

هي، لا أحد غيرها. مريم التي سرقت من بين أصابعها أحرف الكتب الجامعية ورأت تفاصيل العالم، ولكنها عجزت في ذلك الزمن المحترق عن رؤية الأشياء التي تتقاتل في القلب. تغازلك تحت هذا المطر الشتوي الدافئ وتدفعك نحو جري جنوني. الملاية الرائعة التي احتفظت بها في المطار، ترفرف والفضاءات الواسعة وتتلون بألوانها. الشعر الساحلي الذي صفرته شمس شواطئ البحر المتوسط، أتعب الأرياح ولم يتعب، فاستقر بعد نشوة الانتصار على اتساع جبهتك العريضة.

الدخان ينسحب نحو السرير، كراقصة أسكرتها هموم اللحظة. تغمغم. اسمع نحيبها الذي يستقر في لوعة الذاكرة.

ـ حبيبي. قاوم.

ـ ماذا علي أن أفعل؟

ـ يجب أن تتساهم وأن تفرح. اليوم لنا. ربما لن نجد متعة هذه اللحظة مرة أخرى.

ـ المدينة صارت مقرفة.

ـ أريدك أنت أما هي فلتتبخر أو تموت. لا يهم.

تستقر الابتسامة متعبة في محاجر العيون. شيء ما في ابتسامتك لا يستقيم. وفي اعوجاجه جمالك. أشعر دائماً حين تضحك عيناك بسخرية لطيفة، بهالة ما تطوف سر هذه الابتسامة.

الدخان تعب. بدأ يصعد وينزل كراقصة تتلوى بلذة. كل شيء ينبض بالحياة، حتى بقايا الخلايا الميتة. لباسك الأبيض الشفاف كان قد ركب الغيمة البنفسجية ولم نعد نراه.

ـ كان يجب أن لا أسكر.

ـ أريدك هكذا لأنك تزداد صدقاً.

ـ في هذه المدينة المنكسرة لا أجد نفسي إلا عندما أسكر.

ـ قلت لك أحبك هكذا وأحبك في صحوك.

ـ الصحو؟؟ القلب مملوءة بالمتاريس والعسس.

يجب أن نخرج للحظة من دمار اليأس والموت لنرى العالم على صدقه. نرى العصافير التي تختبئ وراء العيون التي أذبلها انتظار الآتي الذي لا يأتي. هز روحك يا ولد الخامجة. سنعيد الاتحاد عندما نشاء، لا عندما تشاءون. أنا قلت لك دعيك من ربهم، لكنك أصررت. إنهم أقوياء. عيونهم قاسية.

ـ عد إلى رشدك.

ـ ها أنت مرة أخرى تطل برأسك لتفسد علي متعة التذكر.

أراه بكل ملامحه المنكسرة. يختبئ وراء متاريس الرمل. أشعر بنغمشته الأولى. بدأ ينهض بصعوبة. ينظر إلى الأرض. يفرك عينيه. يعد أسنانه واحدة واحدة حتى يثبت لنفسه أنه لم يعد سكراناً. سفيان

الجزويتي ما يزال في غيبوبته الأخيرة التي تسبق نهوضه بقليل. حين أمد يدي إلى صدرك، وبين ساقيك اللذين يشبهان المرمر، تنتابني نعومة خاصة ثم أندفن في تفاصيل اللذة.

الدخان يملأ ضيق الحجرة ويتسرب عبر شقوق الخزانة والنافذة (النافذة وجدت مفتوحة والباب نصف مشرع). ظننتك أنت. لم نعد نجرأ على قول أي شيء. كنت قد احترقت على الصدر داخل شعاع خفيف متسرب من النوافذ التي أعيد غلقها بإحكام. هدير الشوارع الخلفية التي تتصارع فيها الأوجه الغامضة، يزيد من حالة التوجس. أنفض رأسي عبثاً. لم أعد أرى شيئاً غير تفاصيل جسدك ووجهك، ولا أشم سوى رائحة عرقك.

- هل تحبني مثلما أحبك؟

- مثل الأغنية التي ارتسمت في القلب.

- قلت لك إنك شاعر.

- صفة كبيرة علي.

لست أدري، هل رقصت أم بكيت، أم غنيت الأغنية التي ترتجف لها عيونك وتهتز لها حرارة جسدك

الساقية تبدأ في التكوين مثل الجنين.

أشعر بعمقك. أنتِ هنا، داخل القلب. تمزقنا يد مجهولة. يقص الحبل السري لتسقط قطرات دم خفيفة على بطني الذي كان ما يزال ينتفض تحت تأثير صرخته الأولى في مواجهة رداءة العالم. تشتعل النيران في المصاحف القديمة وفي كتب الوراقين العرب الذين كتبوا عن الحنين بذعر الخائف من ارتكاب الخيانة الوطنية العظمى. وصالح الجوال بأحرفه الصفراء، يجر سحنته الهزيلة قبل أن تندفن رغبة المعرفة عنده، تحت أطنان الكتب الصفراء التي حبست أنفاسه.

الساقية تبدأ في التكوين مثل الجنين.

يا بييرو الصغير.

هي قطرة أو قطرتان من المطر.

وأنت. أنت بالذات. لؤلؤ أو لؤلؤتان من الحياة. يجب أن تعيش حياتك حتى الموت لأنك جميل. ولأنك لست مسيحاً، يجب أن تعيش. آه يا مريم إذا انقرضت القيم الثمينة على الدنيا السلام. من يستطيع أن يغني لكم إذا انتهت أنا شيد العصافير إلى المقصلة. من يملأ ضجيج الشوارع بالفرح إذا نسي الشعراء في مدن الحجر والإسمنت المسلح. من يستطيع أيها الغيم المهاجر، من يستطيع أيتها الصحاري التي انسحبت عن رملها نحو البحر والحياة. من يستطيع أيتها الشاعرة الغجرية التي ارتكبت كلماتها أكبر حماقات الحب والفوضى، أن يعيدنا إلى أشواقنا الأولى؟ سيبدأ الآن موت العصافير. المدن أخرجت خرائبها. وأنا يا مريم. حبيبتي. سأقطف لك زهرة الرمل. سأقطف لك قلباً متعباً من الحدائق التي لا تنجب إلا الورود. سنكف عن الغناء وننتظر الريح المفعمة بروائح الياسمين وأضواء المدينة.

من مطار لمطار.

صحبتك تفرح وتعذب. والأيام تجري نحو حتفها ولا تنتهي.

لو فقط طلقك. كانت المسألة أقل تعقيداً. صالح ولد لخضر لصنامي. لم يطلقك لابتزازك حتى آخر لحظة. كان يعرف أن هذه المياه الباردة التي نتكئ عليها ستتحول إلى دفء كبير حين نجتمع. صرخ في وجهك: قلت لك كل الناس ولا هذا الكلب الشيوعي. كنت قد وصلت إلى حالة قنوط قصوى. لم يعد يهمك لا عمك ولا أمك ولا خوفك من أن يرميكما في الشارع بعد أن استعار فرج زوجة أبيك من الساموراي. كان أحبتك وأصدقاؤك يشربون أمواج البحر من أجل السفر والعودة وصالح ولد لخضر لصنامي يصرخ بكل قواه يأساً:

ـ قلت لك إني أكره ربه. أكره كل الشيوعيين الذين على شاكلته.

قال لك صالح بعنف تجاوز كل حدود.

ـ لم يؤذك، لماذا هذه الكراهية.

ـ تزيدين في هذا التجاهل، سألحقك به في حفر الموت ولتصبحا طعما للجرذان الجائعة. قلت لك لا أريد سماع اسمه على شفتيك. قد يكون هو الذي فض بكارتك. أنا متأكد أنه هو الذي فعلها.

ـ لو كان هو لقتلها لك بدون شعرة خوف.

ـ لسانك طويل يا بنت الساموراي السكران.

صرخ صالح طويلاً. عوى مثل الذئب ولم يشف غليله إلا عندما سطا على الأوراق والمنشورات التي كانت في يديك وبعض الوثائق التي تخص بحث الأساطير والحكايات القديمة التي كنت تعشقين معرفتها.

عندما كنت مندفنا بين نهدي مريم، كان [illegible] الجزويتي يمسح عينيه الزجاجيتين من ندى الماء ثم يدخلهما في المحجرين المخيفين الفارغين من كل حياة أو حنان ثم يركب طاقم أسنانه المنخورة.

ـ عيب يا فاوست. كان عليك أن لا تحبها. زوجة صديقك يا رجل. حد أدنى من الأخلاق يا صاحب المبادئ الكبرى.

ـ لم أكن أعرف أنك صرت فقيها مصلحاً يا سفيان.

ـ أنت تعرفني يا فاوست، فأنا لا أنطق عن الهوى يا صاحبي. أقول هذا لمصلحتك حتى تتفادى البهدلة لك ولها.

ـ أهناك بهدلة أكثر من أن تلصق امرأة برجل لا تحبه؟

ـ لكنه شرعاً زوجها. أنت لست شيئاً يذكر بهذا المنطق. أنت غريب وربما أكثر، متطفل على حياة غيرك.

ـ الله يلعن أبو الشرع الذي يأتي منك. من أين أخرجتم كل هذه التفاهات؟ ما مصلحة مريم في فقير، مجنون مثلي. مصلحتها المادية مع صالح لا تقارن. السيارة والسكن الواسع. أنا لا أستطيع

أن أوفر لها حتى حجرة النوم. حتى النوم. نعم. يجب علي أن أنزل إلى فندق سيدي الهواري. ندفع ثمن سريرين لليلة واحدة، ولا نبقى هناك أكثر من نصف ساعة. الوجه القميء الذي يشبهك حرمنا من بعضنا بعضا.

ـ لو رجوته بإنسانية لساعدك.

ـ رجوته. قلت له: سأخرج أنا وأتركها. تعرف يا خويا، الليل ولا مكان آخر لنا في هذه المدينة. كنا ننوي أن نبيت هناك. أقنعت أمي بأن لدي عملاً ليلياً حتى لا تقبض قلبها بين يديها. رفض بشكل مطلق وهددني بإخبار الأمن. خفت عليها فخرجت. درت الليل كله ومع الفجر وجدت نزلاً حقيراً. نمت ساعات ثم مررت على مريم. ماذا تطمع في إذا كنت عاجزاً عن توفير سقف لها؟ مريم الوديعة تحبني يا سيدي سفيان ولعل هذا ما يدمرك. قماءتك تثير الاشمئزاز. تدفعني إلى التقيؤ. أرقص. سأرقص حتى الموت. لا يمكنك أبداً أن تسمع آلام الرقص. لو قدر لجدي أن يبقى حياً لفجر دماغه احتجاجاً وفقد قبعة مومبرينو التي حارب من أجلها شياطين الطواحين الهوائية. أرقص. يجب أن نتعلم متعة الرقص.

كانت مريم قد صارت جزءاً مني.

ـ أرجو.. ك لا.. تتو.. قف..

ازدادت حركاتي بعنف أكبر. غمغمتها اندست بخجل تحت جلدي مع الفراشات التي ازدادت رفرفة أجنحتها الملونة. حبيبي. ضمني. مزقني.. لا تتوقف.. رائحة جسدها بدأت تتبخر في رأسي كالجاوي المحروق وتنزل الغلالة البيضاء من الغيمة البنفسجية التي احمرت مثل الدم. استقر خجلك بين دفء عينيك اللتين خيل لك أن ذبولها قد غاب. حبيبي. فرحي الوحيد. إنها الآلام الأولى التي تسبق الصرخة الكبرى التي ستدوي كالرعد، من هذا القلب المفتوح عن آخره والمجروح في أدق نقطة فيه.

وجود هذا الملعون بدأ يزعجني أكثر. شعرت أن لدي حاسة كلب متوحش. أتشمم لعنة الألم من بعد بعيد. إنها نفس الحالة التي تنتابني كلما كنت على مشارف حمل حقائبي وقدمي في رأسي استعدادا للرحيل. عادتي قبل أن أنزلق على أدرج الطائرة، أن ألثم للمرة الأخيرة المدينة التي أعشقها. اهتف في أعماقي. وداعاً، قد نلتقي. من يدري؟ لا أحد يضمن الحياة. تنحدر الرغبة، ومعها تقترب أحذية البشر الخشنة التي سرقت من جنود كانوا يموتون بالتقسيط في شعلة الجبهات الحربية. تشل أجنحة العصافير والفراشات الملونة التي تحاول أن ترفرف قليلاً بصعوبة ثم تهدأ نهائيا. في المطار، الكل ينظرون ناحيتي بعيون مدورة مثل الليرة القديمة التي فقدت مع الزمن قدرتها الشرائية. يتمتمون:

ـ ولد الحرام. رايح عند قحبته. ما ريَّح حتى تبعها!

أركب الطائرة وأقسم برأس محمد بن عبد الله أني لن أعود إلى جثة هذه المدينة، لكني في الأجواء أفاجأ بعيونه الزجاجية وهي ترقص في كأس القهوة المسائية قبل أن تهتز الطائرة بعنف وأخاف من أفتقادك النهائي. فأتمتم مثل مبتهل بوذي: يا الله! وسعت رحمتك وعزت صحبتك، أوصلني بقلب مريم واحرقني إذا شئت. فأنا لا أطلب شيئاً سوى رؤيتها والموت على ركبتيها.

لا أحد يرد ولكن اهتزاز الطائرة خف وصرت أراك بوضوح أكثر وبحب لا شيء فيه إلا الصفاء ورعشات الذاكرة وبقايا الوجوه التي تقاوم يومياً العتمة والمجانية.

الفصل الثامن

طفلة الحارات

زممت فمي وأنا أزيد من سرعتي. لم أعد أفرق بين الدم والعرق الذي كان يغسلني من الظهر حتى بقية الجسم.

أين أغانيك يا زمفير التي كانت تملأ الشوارع حباً؟ هل تعلم ماذا حدث؟ كلها كنست في ساعة واحدة، بيد غليظة وعيون صدئة تنام تحت نظارات سوداء. أين صرختك يا زمفير يا رجل الشأن الكبير والسعادات المخبوءة داخل النوتة الموسيقية المرتعشة؟ أتصور أنك لو خيرت في أعماقك بالملايين، مقابل أن تحجز أغانيك لما فعلت. لكن يا حبيبي، لا أحد يسمعنا، ولا أحد مستعد لتقبل حنينك. الكل يلهث من كثرة الركض، في رحلة قاسية، تطارده ريح، لا يعرف مصدرها، يظن أنه يهرب منها ولكنه يفاجأ بها، مستقرة في دماغه. وحين تندلع ثانية، يرعبه صفيرها الخارج من أعماقه. أغانيك يا زمفير التي عاشرت وحدتنا في هذه المدينة يمسح بها زجاج المحلات الكبيرة وشوارع المدينة.

تكتيك. أي. رأسي ينفجر. تكتيك يا ولد الناس. ما زلت صغيراً للتفريق بين التكتيك والاستراتيجية. تكتيك. حين توضع رقبتك على سكين المقصلة، وتبتر يداك على حد أجمل سورة قرآنية، هل يبقى متسع للأمل والأشواق؟ واجهكِ في غفلتك بكل أحقاده وأمراضه. كلماته لم تكن مقنعة. تكتيك يا حبيبتي. اتفاق مسبق. أنت تعرفين أن أبي، ويرحمه الله توفي بحادث سيارة. المقربون يؤكدون أنه انتحر. هذا كذلك تكتيك؟ اتفقنا على كل شيء. يجب أن يبقى أحدنا خارج

الدائرة وخارج الحفر حتى يوصل أخبارهم إلى ذويهم. ظل يردد على مسمعك: أحاول تحييدك عن الصراع لهذا السبب يجب أن تفهميني. أمعقول هذا الكلام يا الله؟ ما هذه الفظاعات التي ترتكب باسمك؟ أعتقد أنك غائب دوماً وإلا ما تركت هذه الكارثة تحدث أمام عينيك. أحياناً أجزم أنك مت مقتولاً من طرف من لا يعرفك نبلك. أنا أحبك، لكن حبي أمام الطاحونة لا يساوي شيئاً. في حالاتي اليائسة أتخيلك على صورتي، أراك تعيساً ووحيداً مثل العساكر الكبار. تذرع الحجرة جيئة وذهاباً، تحاول أن تقاوم يأسك ولكنه أكبر منك. وإذا كنت غير ذلك، فلماذا نسيتنا يا الله ولماذا تركتنا وحيدين؟

ـ صالح ابن مدرستكم يا فاوست. كلمة تكتيك من قاموسكم.

ـ لم أكن أعلم أنك موجود لهذه المهمة كذلك يا سفيان.

ـ لو كانت تجربتكم صحيحة، لما خسرتموه.

ـ ومن قال لك أنه كان يهمنا إلى هذه الدرجة؟ ظل حبيس ظلمة شكوكه وأحقاده. كل من تثبت في عقده، قصر عمره ومات أو صار طاغية لا قيمة للروح البشرية بين فكيه ويديه.

ـ ها... ها... سيدي فاوست بدأ ينظر ويفتي الآن؟ أنت سرقت شرفه، وجامعت زوجته؟ هل تريده أن ينظم لك احتفال المنتصرين؟ مليح أنه تحمّل ولم يقتلك. يجب أن تحييه على شهامته.

ـ لم أسرق منه شيئاً. مريم ليست طفلاً قاصراً. أحبها وتحبني وهذا يؤذيك كثيراً يا سفيان الجزويتي ويقتل صاحبك صالح.

يستحسن يا سفيان أن تختبئ وراء متاريسك الرملية وتنتظر حتى تتلقى الإذن بالكلام عن طريق الإشارات اللاسلكية. تكتيك. نحن لا نتحمل صياغة الأشياء وفهمها بشكل غلط. أعطيناه ما استطعنا. ولكنه ظل صغيراً ومموهاً. يزوق سيارته الخاصة بالكتب الكاملة للينين، ويتشدق بقراءة النصوص الماركسية ورأس المال والأدبيات الثورية.

كانت الشيبانية، أمي، فاطنة الهجالة تغلي القهوة وتنهاني من أولاد الحرام وكنت أسخر منها بحب. في عروقها يتسرب دفء رائحة الجدة والقرية وصدق الذين مضوا بوحدتهم وصمتهم. حين عدت لها في ذلك اليوم البارد، أسحب ورائي رائحة الحفرة السوداء والجرذان، قبلتني وتمتمت في أذني لا تحزن، رحمة ربي واسعة. مريم زارتني خفية، مرتين. قالت أن زوجها يسحب جثته وراء خطواتها. إنه مصمم على تدميري وتدميرها. فعلها بدون تردد. قالوا له: زوجتك! قال بمزيد من الكذب، مصلحة الوطن فوق النزعات الذاتية. عرفت من الناس الذين كانت تجمعني بهم بعض الأفكار والحزن والخبز، أنه باعنا بفرنك مثقوب. وشايته الرخيصة هي التي أوصلتنا إلى قلب الحفرة. مسكينة الزهراء الفولونطارية. صالح الطالح. أرسلناه يخبر الأهل عن أماكننا، فوجئنا بالشاحنات السوداء تخرج الفرحة من قلوبنا. أخطأ. كه. كه. مجرد خطأ صغير، زلة قدم. لم يستطع تجاوز لحظة ضعف كانت تأكله من الداخل. ليس مهماً يا مريم. أزمته أنك لست له كاملة مثلما يشتهي. لم يفض بكارتك. المسألة وما فيها هو امتلاكه لتلك الورقة الرديئة التي تتيح له استباحة فرجك وفرحك. مجرد ورقة تؤهل الزوج لانتهاك عاطفة امرأة وجسدها وكيانها. لا شيء يعنيه من هذا الحشد من الناس الذين تركوا أسوار الفولاذ الجامعية مجبرين، وخرجوا من فوهات الدبابات الثقيلة التي تفاجئهم كل صباح إلا سلطانه وهمومه المريضة. إنها المقبرة يا مريم التي صارت في دمنا. واسعة، باردة مخيفة. أصبحنا نحمل التوابيت في القلب. ندفن فيها كل ما ترفضه ضخامة المدينة. كنا نموت بصمت وكان هو يتكتك على سذاجة مريم الوديعة.

كنت أتحسس الجرح الذي بدأ يمتد ببرودة قاسية نحو القلب. يا إلهي! أليس هناك حلاً آخر غير تلك الضربة الجافة، بالقرب من بائع السجائر والأشرطة والصحف، وعلى ظهري ضحكة طفل الإعلانات الساخرة. لم أتألم كثيراً. لكن الجرح يورثني حساسية

زائدة تجاه هذا الضباب الكثيف الذي يطمس هذا الشارع الذي أثقلته إعلانات الأفلام الهندية. وابتسامة *شاشي كابور* ذي الأصل العربي. هكذا يقول إعلان قاعة السينما. لكنه هو، سفيان الجزويتي، يمسح وجهه وعينيه بباطن يده كمصل ختم وضوءه بالشهادة. يتحسس المسدس البلاتيني الجميل. يقلبه كاللعبة المفضلة وسط ركام من الألعاب الأخرى. ربما الذين أرغموه على التكوم في هذا الرأس، بدأوا يعطونه مثل هذه الأوامر المزعجة وهو كالكلب المربى يستجيب لهم بدون أسئلة.

ـ فاوست؟ تعرف أن روحك في يدي. أنت لم تبعني شيئاً، كل ما اشتهيته أخذته. لست كلباً. إنسان كامل لا يريد المذلة لوطنه.

ـ أنت تسمع حتى نبض الميت.

ـ كان يجب أن يقص لسانك حتى تعرف قيمة التخلق في الكلام. قلة أدب.

ـ أنت أسوأ من يتحدث عن الأخلاق.

ـ موقعي يسمح لي بهذا يا فاوست، المشكلة فيك.

ـ موقعك لا يسمح لك سوى أن تكون جزويتيا لا أكثر. نم أحسن لك ولي، الدنيا برد كما ترى ومطر.

شيء ما في داخلك يا مريم، كان يدفعك إلى مسخه أمام عينيه حتى يصدقك أن في دمك حرارة الساموراي الذي تحول إلى مفخرة وطنية بالمصادفة. لم تكوني قادرة على مجاراته أكثر من ذلك. يجب أن تنتهي تفاصيل هذه الكذبة الرديئة. من غير المعقول أن يكونوا بهذه السادية المجانية. قلتِ. لكنكِ ذات طريق طويل، فوجئت بالسيارة السوداء. قلت مخطئون. قالوا. مريم. مريم بنت الساموراي. أوراقك. هذه صورتك.

ـ سيدي أنتم مخطئون، حاولتِ إقناعهم.

ـ نحن لا نخطئ يا.. مريم..

ـ يا سيدي أنتم ترتكبون خطأ فادحاً.

ـ مستحيل. زوجك لا يمكنه أن يخطئ. زوجك. قلنا له.. فأصر بكل وطنية. قال إنك كنتِ تعطينهم الأكل وهم في مخبئهم. من أين جاءتك المنشورات السرية التي كان يمزقها زوجك. بينك وبين الاتحاد علاقة الوثائق التي تأتيكم من بعيد. اهتمامك بالبحث في الأساطير لعبة تمويهية. زوجك لا يكذب. نعرف الصغيرة والكبيرة.

ـ لا شيء يغيب عنا يا فاوست يا محترم.

ـ أصابكم الهبل. صرتم ترون الأعداء في كل مكان يا سفيان.

ـ التحقيق ليس هبلاً. طريقنا إلى الحقيقة.

ـ حالتكم المرضية تعكسونها على الناس العزل مثلنا.

صفعوك بالحكايات التي لم تسمعي بها في حياتك. صرختِ بأعلى صوتك وبيأس: لا أعرف. لو كنت أعرف لقلت. تهامسوا ثم التفتوا نحوك: أنت تلعبين برأسك وهذا لا يفيدك يا مدام صالح. مدام صالح ؟ إني أكرهه مذ رأيت في عينيه الصغيرتين ذلك الدم الفاسد الذي تحجر في محجريه. لا شيء يجمعنا غير تلك الورقة الوهمية. أجبرتِ على أخذ حمام الدم. حاولتِ أن تندبي وجهك ولكنك لم تستطيعي. فشلتِ في البكاء مثل طفلة أخفقت في إنجاز مشروعها عن طريق الدمع. حين خرجت من الحفرة كان قد رمى العوينات واستعاد نظارتيه السوداوين اللتين تقربانه من هندام الطغاة الصغار. كنت تشعرين في أعماقك بأنك تمارسين دعارة قانونية. وحبك كله كثف في ورقة، يشممها لك كلما حاولت أن تقولي لا.

ـ تصور يا حبيبي. ناموا على صدري حتى احترقت. ولجوني حتى خفت من الخروج بكافة الأمراض الزهرية أو أصاب بلوثة في دماغي وأكره كل الرجال بما فيهم أنتَ.

أمي، حين خرجتِ وكنت وحيدة، قبل أن ترحلي في أول قطار إلى البلدة، نصحتك بالتبخير على رطوبة الشواطئ المتوسطية،

والأعشاب المتوحشة وعلى أرجل الخرفان المحروقة حتى يلتئم الجرح الذي اخترق رحمك. قلتِ يا يما الحاجة. أتذكر تفاصيل ذلك الزمن الذي انسحب بخوف من القادم المجهول الذي يوقف شعر المارة في الشوارع. وقفتْ في دماغك آلاف المتاريس. الوجوه الغامضة التي اقتحمت رأسي بآلياتها لم تكن أقل من الحفر التي حفرت أخاديدها بدماغك.

تغيب الشمس تحت ركض الغيوم الكثيفة. وحين تطل من جديد، تتورد مريم ليتحول وجهها وكل جسدها إلى قطعة من البرونز. كنت داخل المقصف جالساً. وحيداً. أكتب القصيدة التي استعصى على سفيان هضمها. فاجأتني في ذلك الصباح قبل أن أختبئ وراء بخار كأس الشاي. كنت قد بدأت أمنحها ما تبقى من فرحي.

- كيف صحتك؟ حال قلبك؟

- لا بأس. الشقي لا يموت بالسكتة القلبية.

قلتُ.

ثم غبت من جديد. أنا في صراع مع هؤلاء الفضوليين، قلتِ. جئت من أجلك. عاتبتني عيناك حتى قبل أن تنتهي من الكلام. جئتك لأني أحبك وطز في البقية، هل تعرف ما معنى أن ترفع امرأة صوتها وتعلن حبها بصوت عال لرجل ما؟ حكيت للأصدقاء الطيبين عن القصيدة. لم يؤيدوني. قالوا مغامرة طفولية. هل تريد العودة إلى الحفرة السوداء؟ في الواقع كنت في صراع مميت مع سفيان الجزويتي الذي يحمل مسبحة غليظة في يده الطويلة غير المنسجمة مع قصر جسمه. في رأسه مدفنة كتب التي لا يحفظ إلا عناوينها. يرفض أن أحمل القلم في يدي وحين أصرخ في وجهه. هذه مصلحتك يا سفيان وليست مصلحتي. يكشر في وجهي ويهددني ثم ينغمس في كتابة تقريره اليومي وإنمائه وإثرائه. جئت من أجلك. كان يجب أن أنتظر أسبوعاً آخر لأشرب حتى العمى وأدعوك إلى أقرب المطاعم وأقول لك. أحبك. تعذبت من أجلك يا مريم. في

الحفرة نسيت أمي وبقي وجهك مثل النور. مثل شيء حار وغامض في القلب. نحسبه ولا نراه أبداً. لمحت من وراء بريق عينيك، الشطآن الجميلة تعود بشموسها بعدما هربت إلى جيوب الصمت والخوف. وبدأنا نخرج من دوائر الدهشة والرعب. يجب أن نعيش. هكذا الحياة. أمي كانت تحبك. شعرت بالمألوفات المفقودة تعود إلي. تألمت كثيراً للملامح التي غيبتها الوجوه الغامضة. بحثنا عنهم في كل الأماكن ولم نجدهم. قيل لي أنه سافر. أين؟! لا أحد يعلم. قيل دفنوا بصمت. أحد الأقرباء قال لنا إنهم أعادوا لنا ساعته والمانطو البيج الذي كان يرتديه في ذلك الشتاء الفج. وآخر قيل عنه، أنه ما يزال يشتغل في المؤسسات الخاصة بإعادة التربية.

ـ قل الموت أحسن.

ـ أنت حين تشرب تقوى عندك النزعة الدرامية. قالتها لك مريم قبلي.

ـ هذا هو أنت، سفيان الجزويتي. كل شيء تجيره لمصلحتك.

ـ بموقفك وتعنتك تعذب نفسك وتعذبني معك.

ـ لو كنت قادراً على سحبك من دماغي، لنحيتك وفقصتك.

بعدها ليأت ذلك الشيء الذي يسمى دمارا وإبادة. لتأت الماريحا التي حكى عنها الأولون الذين سبقونا في الشهادة. إنك تمشي. تتحرك في دمي يا سفيان الجزويتي. تتمنى لو تتقلى تلك الإشارة اللاسلكية الاستثنائية للإجهاز علي في أقرب الآجال. لكنهم. ربهم. تأخروا عنك جداً. تتحسس أشياءك الدفينة ولعبتك المعدنية التي ساهمت في تركيبها شركات I.T.T التي مزقت جثث الحكام الطيبين في أمريكا اللاتينية وسكنت أدمغتهم بآلياتها، والـ Dasso والـ Grundig وSony والـ Toshiba القائمة مملة ومخيفة وثعابين الربع الخالي والبحر الأسود والأحمر والأبيض، التي تخرج من نفايات النفط الخاثرة المزفتة. عجزي مؤلم، لكني أعتقد أننا سنصل إلى اللحظة التي نستعيد فيها كل الحسابات القديمة، وبشكل جيد.

ـ تفكيرك أعوج يا فاوست. تحمل كل الناس انهيار العالم وكأنك النبي الوحيد على هذه الأرض.

ـ النبوة أتركها لك ولغيرك.

ـ لماذا إذن سرقت له زوجته؟

ـ تحبني وأعبدها. البقية مش شغلك.

ـ يبدو أني أفهم الطبائع البشرية أفضل منك. الشعر شيء والحياة شيء آخر. من حقه أن يقتلك.

ـ الحياة شعر. والشعر حياة. لم تكن تحبه.

ـ الحب؟ أنت كذلك تشتهي لحمها ولكنك لا تعترف.

أنت لا يمكنك أن ترى إلا ظلام المحيطات وعظام المطر. قصر النظر لديك لا يؤهلك لأن تدرك فداحة الخسارة لدى العاشق. الله غالب. نعومة الأشياء تغيب عن عينك الزجاجية حتماً. جدي دون كيشوت أحب المرأة التي عبدها في خياله وأحبته حتى آخر لحظة. قال لها قبل أن تستقر عيناه في قلبها: حيث *يسود الخداع تختفي الحقيقة.*

ـ الشعر خلِّيه عندك. ليس هذا وقته. عندما رآها لأول مرة في حقول القمح والشعير، لم يفكر جدك دون كيشوت في شيء آخر سوى وضعها بين رجليه. أن يبصق فيها منية المتخثر في القلعة الباردة. ثم تأتون فتلفقون كل شيء في لباس مقنع عاجز عن إقناع حتى الأطفال. في أي شيء تختلف أنت بالذات عن صالح ولد لخضر البرادعي؟ إذا لم تكن رغبتكما القصوى هي السيطرة المطلقة على فرج مريم، الفارق الوحيد هو أنها تريدك لأنك ملأت رأسها بالأفكار السياسية الكاذبة وتكره الآخر مع صدقه في اشتهائها. النساء هكذا دائماً، يملن نحو الأقدر على الكذب والرياء.

ـ طيب. لكن هل في الموقف ما يدعوك إلى كل هذا الارتعاش؟

ـ أنا لا أرتعش، أنا أتكلم بقلبي.

ـ وهل لديك قلب لتتكلم به؟

ـ أريدك أن تقتنع أنك مخطئ في كل تصوراتك.

ـ من الصعب أن يكون بيننا مشترك جدي للكلام.

ـ وماذا يجب أن أفعل في نظرك لإقناعك؟

ـ حين تنزل من هذا المخ وتنزع ألبستك العسكرية وتدفن لعبتك المعدنية، يمكننا وقتها أن نتحدث عن نقاط ضعفي. مريم تعرف جيداً أني لست ملاكاً. ولو كنت كذلك ربما لما أحبتني أبداً.

في خلفية ما، داخل المدينة، وبهذا الجرح الكئيب، استطعت أن أسمع مارشات عسكرية تساقطت أصواتها داخل القلب البارد. حتى سفيان الذي يسمع الصغيرة والكبيرة، قفز من مكانه بسرعة ثم رفع يده عند رأسه ووقف باستقامة.

ـ ها. ها. هذا صوت الرعد وليست مارشات عسكرية.

ـ دقة سمعك تقربك دوماً من الكلب.

ـ حاشاك. احفظ لسانك. قليل من الأدب لا يؤذي أحداً.

ورحت تتحسس أشياءك الثمينة، وفي أعماقك تتمنى لو تخرج بسرعة كبيرة وتجري إلى الإعلان وتأخذ عنوان الوكالة لتتحصل على كتالوج الثورة الجنسية مجاناً. ربما وجدت فرصة لاستدراك نقائصك.

ـ أعتقد أننا نقف على طرفي نقيض.

ـ أنا هنا للتفكير في مكانك حين تعجز.

ـ لم أفهم جيداً.

ـ حين أراك تتجاوز حدودك. أعيدك إلى جادة الصواب.

ـ يكثر خيرك. أمثالك قليلون في هذه الدنيا يا سفيان.

ـ واش تحب. نحن من أنصار دير الخير وانسه.

رفعت رأسي رغم الجرح الذي عاد من جديد إلى النزف. ملأت

عيني الإعلانات العملاقة: *ونستون هي الكمال بالمتعة*. قف قليلاً وتأمل هذا العالم الجميل. الحصان. الحطبة المشتعلة. والرجل الأمريكي Cow boy الذي تثير رجولته فضول هذه السيجارة. *توج راحتك بالمتعة وامش*. حين تقف عند بياعي السجائر لا تتذكر السيجارة بقدر ما تفيض في دماغك تفاصيل الصورة كلها. فتنطقها ويخونك لسانك. ونستون من فضلك. لا. لا. أعطني يا خويا واحدة مالبورو. يرحم والديك صابون لوكس. آالسي!! فرماج لا فاش كيري إذا سمحت. عاش فرح المدينة وتخمتها. الطفل الذي يمارس العادة السرية بصرخته. اتصلوا بوكالتنا. فاجأته تحت الضباب الكثيف يعملها بسرية تامة، السرية هذه الكلمة كان الجد الملك خازوق يحبها لأنها تضع اللثام على اللذة. لنقل تكفن أمراضه الحميمية. كل شيء متلاصق. يجري في أثر بعضه بعضا. قلت لك لن أطلقك. صرخ صالح في وجهك. تتمعنين تقاسيمه. رجل منكسر ومهرس. ترددين بيأس وبدون تردد: طز في ورقتك. لم أعد أخشى شيئاً. كانت أمك قد انطفأت. زاد غيظه.

ـ سأقتله وسأحرمك منه.

صرخت بأعلى صوتك.

ـ لن تستطيع أبداً. الرجال لا يموتون.

ـ ليس رجلك استثناء. أكل مخك وهو الآن يستعبدك.

ـ لا نعرف الكذب وليس في حاجة إليه. أحبه.

يجن صالح. يضرب رأسه على الحائط الإسمنتي الخشن. ثم شيئاً فشيئاً يهدأ عندما يرى أولى قطرات دمه وهي تنزل أمام عينيه. تتمتمين:

ـ عرفت أن النظارات الصغيرة كانت مفتعلة. وأن ضربة الوجه والكدمات كانت مدفوعة الثمن سلفاً. صعب عليك يا صالح أن تكون رجلاً مستقيماً.

ـ لن أطلقك. نخليك معلقة حتى تكرهي روحك.

ـ ورقتك لم تعد تهمني. افعل بها ما تشاء.

آلام الجرح تتسرب من الظهر إلى الرأس. كانت الأشجار العملاقة على أطراف الشارع الرئيسي قد سحبت ظلالها وخضرتها ولم يبق إلا هذا الضباب الذي كانت كثافته تقلل من حدود الرؤية عندي. من حيث لا أدري، أخرجت العلبة. تأملت القلم والقداحة. قلبتهما. ربما كانت هديتك الأخيرة يا مريم. ثم أرجعتها إلى الجيب الداخلي. هديتك كانت جميلة. اختيارك رائع. تمنيت لو كانت معي مسجلة لأستمع إلى شريطك المفضل *كارمينا بورانا*، لكن أصداء الليلة ما تزال في دماغي. تمنيت أن أسمعه للمرة الأخيرة قبل أن تغمض السكاكين الباردة عيوني ويجرني هذا الخوف إلى حفرة الموت مرة أخرى وقبل أن تسحب أيادي سفيان الطويلة ظلال الأشجار العملاقة.

ـ الأفضل لك أن تنسى هذه الهدية. ستعقد من وضعيتك.

ـ ألفت إزعاجك. قل إنك تحسدني على هذه الهدية البسيطة.

ـ أنا أنبهك ولا أحسدك. ستتحول إلى شهادة ضدك.

ـ يستحيل. ربما كانت آخر شيء أغمض عليه عيني. فلتتحول إلى دبابة أو طائرة حربية ضبطت معي في الجيب. ماذا يهم؟

ماذا يهم، حين يصير بينك وبين الموت عد يقاس برؤوس الأصابع التي نزعت أظافرها. ليبق فقط ذلك الشيء الحار والجميل الذي نحس به ولا نلمسه يعوضنا في الخسارات الكبرى.

لا شيء يهم. لا شيء، غير وجهك يا مريم ومتاعب الحفرة التي ستتحول حتماً ذات يوم إلى مدرسة مكيفة أو إلى مكتبة يؤمها الأطفال والكبار، يقرؤون ويتذكرون أنه ذات زمن، كانت تُقتل في هذه الأماكن الأحلام التي لا تموت وتستباح الأجساد.

هذا الجرح الذي انفتح في الظهر كالصرخة الأخيرة لأحد المحكوم عليهم بالإعلام ظلماً، بدأ يتسع ويتمزق.

- يا ولد العطاية في الاتحاد الطلابي وتكتب شعراً معادياً.

- لا سيدي لا علاقة لي بهؤلاء المجانين والخونة.

- هكذا نحبوك. قل لنا من هي الرؤوس المحركة؟

- لا أعرف يا سيدي. ما نعرف حتى واحد.

- أحرق ربه وما ترحموش. راه يلعب بنا.

تنفتح كل الجراحات النائمة على وسعها كالبراكين الخامدة.

الفصل التاسع

لعنة المدينة

تدخل الأغنية العذبة تفاصيل جسدك الذي تلوى شبقاً حتى احترق. تنفتح أشياؤك الثمينة وجروحك عن آخرها، ويدخلها ذلك الشيء الحار الذي نحسه بالقلب ولا نراه والذي يعيد إلى السماء زرقتها وإلى الوجوه الحزينة حتى العظم صفاءها.

أتلمسك برعشة، جسدك تحول إلى محرقة.

جئتك متعباً في ذلك المساء. هلكتني خرائب المدينة التي شهدت ميلادي وميلاد القزم الذي أستوطن الدماغ وأخذ يملي علي شروطه. دخل من بين جرح شقوق الدماغ ثم تلوى بدوره كالأفعى على نفسه. كنت وحيدة وسط ظلام هذه المحيطات المنخورة. أمك ماتت حين غادرتِ الحفرة. قيل لك في البداية قبل أن تنصحك أمي بالتبخير على أمواج البحر والأعشاب وكراعي الخرفان المحروقة، شدة وتزول ولكنها دامت وملأت قلبك دما وحزناً وخوفاً. عيون زوجة أبيك التي أحرقت أخوتك السبعة حين لوحت لهم بالمنجل بدل المغزل، زادت اتساعا. كنتِ وقتها ودعة التي دفعوا بها إلى هجر البيت. عمك الذي استعار فرجها من الساموراي واستولى على ممتلكاته كان قاسياً أكثر منها. نبتت بينك وبينه عداوة الاخوة.

ـ رجلك ناس ملاح. ما يخصه والو. أنت اللي يخصك العقل.

ـ يا عمي لكِنه سيء.

ـ السوء في داخلك أنت وأمك.

ـ يا عمي، راك غالط.

ـ العمى. لا أنا عمك ولا أنت بنت خويا.

هددك أنت وأمك بالطرد من البيت. صرخ أمام كل المعارف: هذه أموالي. خويا حب يأكلني، لكن ربي أعطاه حقه. يمهل ولا يهمل. صرخت أمك في وجهه بحزن وشقاء قبل أن تضمك إلى قلبها.

ـ ما عليهش الميت ما يهدرش. قل واش تحب.

وبكت أمك في حجرك مثل امرأة عجوز استعادت فجأة تفاصيل طفولتها المنقرضة. كان يجب أن ننتظر قليلاً. لم أعد قادر يا الله. الرحمة. قلت. لكنك في أعماقك كنت تدركين أن الثمن سيكون غالياً. حين اجتمع صالح بعمك، نشأت بينهما صداقة كبيرة. حكى له قصتك. قال أنك لم تكوني عذراء وأنه يعرف الشخص الذي فض بكارتك. وأنك تمارسين معه السياسة والخيانة الزوجية. فلم يتردد أن يقولها على مسمع صالح:

ـ عندك الحق يا ولد لخضر لصنامي. سكنت معي أفعى عمياء. والله نطير لها رأسها قبل ما ترفعه.

قالها لينال رضى صالح الذي لم يتوان عن إخراج كل أمراضه المستعصية أمام عمك.

ـ الحقيقة لولا كرامة هذه العائلة كنت فضحتها من زمان.

لم تعرفي تفاصيل القضية إلا عندما عدت من الحفرة. قال لك وهو يطحن كالرحى: مهمتك انتهت. أيام ليس أكثر. لا أريد القحبات في بيتي. العدوى صعبة. ركبتِ أولى القطارات الذاهبة نحو المجهول مصممة على الموت ولا العودة. لم يكن لخالتك تليفون ولكن الذهاب إليها كان ضرورة. وحين عدت كان قلبك منتفخاً مثل الورم، على مشارف الانفجار بالصديد. مجبرون على ممارسة شقاء الحياة. في البلدة لا يكذبون. يضعون الحقيقة أمام عينيك بوقاحة. قلت أنك فجأة وجدت نفسك وحيدة في هذه المدينة الكبيرة. تطاردك

لعنة الساموراي وعمك الذي لم يرث من تقاليد العائلة إلا الخبث والاسترزاق. الجنازة كان قد مر عليها أكثر من أسبوع، لكنك مع ذلك عرفت قبر والدتك الذي كانت تربته ما تزال طرية كأنها حفرت قبل ليلة فقط، تحيط به قبور مر عليها زمن. غابت عنك تفاصيل وجه أمك ما عدا ذلك الوشم الجميل الذي ينحدر من الجبهة كشجرة زيتون نابتة. والشامة الصدرية التي تقاتلت عليها المماليك المنقرضة. وذلك الداء الذي أورثه لها والدك الساموراي قبل أن يدخل زجاجة النبيذ الأحمر ليتحول بعدها إلى مفخرة وطنية ومعجزة دولية. تقف بشموخ أمام برج أيفل والأهرامات وحدائق بابل المعلقة. أبوك الذي لا تصحو عيناه من السكر، زوجته الثانية عذبته حتى وجد ذات صباح عند فوهة أحد الجسور الكبيرة التي تربط شارع المدينة بالبنايات القديمة. كانت أمك تقول لك بعدما عرفت بفقد بكارتك: الرجل يجب أن تعريه من الداخل قبل أن تسمحي له باقتحامك. فكري يا بنتي.

وسط ظلام المحيطات التي سكنت، قلتِ.

ـ يا يما وحق رأسك، إنه رجل طيب.

دارت حول فكرتها القديمة.

ـ عيونه مريبة. فيهما بعض الكذب.

ـ قلت لك أعرفه جيداً وسيسعدني.

ـ يا بنتي أكاد أجزم أنه شهواني وكذاب ولا يمكنه أن يستقر على امرأة واحدة. من سلالة متشابهة.

وقبل أن تموت أمك، في ذلك الشتاء القاسي، وتوضع قنبلة موقوتة في قلب أسوار الفولاذ الجامعية، كنت قد بدأت تراجعين حكم أمك التي كنت تتصورين أنها كانت تعكس عليك فشلها الحياتي مع الساموراي. بدأت تلاحظين ما يتخبأ وراء نظارتيه السوداوين. وحين فتحت عينيك، كانت أمك قد سافرت وكانت الحفرة السوداء تأكل تفاصيلك

أشياؤك الدفينة بدأت ترتجف خوفا. تحدق فيك ككائن أبله أو تبله لحظة تنفيذ حكم الإعدام فيه. ترددت. شعرت بك أكبر من مراهقة فاشلة، احترقت بين أشواك البلدة وتحت شجيرات الغابة البنفسجية ورائحة الحشائش الربيعية المنبعثة من لذة ممارسة العادة السرية بعيداً عن الأنظار. اندهشت حين اكتشفت للمرة الأولى أن المدينة بكاملها تنام على حفرة سوداء كبيرة وعميقة كأيام الحشر. قلت. آه يا حبيبي. فضولنا سيقودنا إلى التهلكة.

هدأت عيناك فجأة. ترددت قبل أن أغمض عيني مثل الطفل أراد عبثا أن يقاوم مراهقته المبكرة. أحبك قلتها. يوم التقينا، كانت عيونه المتعددة وعويناته ونظاراته السوداء ما تزال تضطهد هدوءك. تجاوزت الذعر الذي أنبتته فيك الحفرة السوداء. حالة صوفية يصعب البوح بها. قلت أنك تخافين علي منه. قلت أحبك ولا أجبرك على فعل ذلك أبداً. ومن دون دراية. عثرنا على طفولتنا تتحرق على عيون بعضنا بعضاً.

ماذا حدث منذ تلك اللحظة؟ لا شيء سوى أننا كلما تذكرنا تلك الليلة ازددنا اقتراباً وأدركنا أن للخوف طعما ورائحة تشبه رائحة تلك الليلة المتفردة.

حين فتحت عيني على شفتيك، كنت قد نسيت وجه صالح ولد لخضر لصنامي الذي لا تحلو له اليقظة إلا لحظة الفرح. فكر، قلتِ بهمس الخائف. فكري أنت يا مريم. لقد فكرت قبل هذا الزمن الذي مضى بعد أن أدمى القلب مثل اللعنة. لسنا لعنة هذه المدينة. ليس مهماً. يجب أن نعيش حتى الموت. الحياة جميلة. بدون قساوة لا نعرف لذة الفرح. سنعيش. سنسافر. نجري. نتخبأ في كل متاحف العالم. نذهب. ونعود. يجب أن نحيا من جديد. كنت أعرف أن قلبك واسع سعة هذه النجوم وهذا الفضاء. حين فاتحت أمي في موضوعنا، ضحكت.

- أنا عرفت كل شيء من عينيك وعينيها.

- يا يما نحبها. الله غالب.

- الله يكتبكم لبعضكم. يا ربي آمين.

- نستناها تكمل مع رجلها ونسافر مع بعض.

- مريم بنت ناس. الله يفك سراحها. بلاك تنجح معك وتعلمك كيف تقبض الأرض وتعمر بيتْ.

مضحك أن لا تجد في مدينة عرضها يساوي بلداً بذاته، مكاناً تمارس فيه فرحك بعيداً عن الأشياء التي يقتلك تحجرها وثقلها. أول مرة مارسنا الحب، حين غابت أمي إلى الحمام. وحين عادت لم تجد إلا رائحة فرحتنا التي انسحبت فجأة مع انفتاح النوافذ والباب عن آخره. ابتسمت أمي وعرفت أن ابنها غارق في حب امرأة ساحرة وأنه صار رجلاً وسيعيد بعث أمجاد أجداده. لكن يبدو أن القتلة كانوا أسبق من حبنا.

حين قلت بحزن عاشق سقط على رأسه من أعالي شرفات قوس قزح: أتيتك من الزوايا البعيدة بحثاً عن قلبك المدفون في الوديان ووراء أكياس الرمل والمتاريس ولست مستعدة لفقدانك مرة أخرى، بعدما عثرت عليك بمشقة. حبيبي. غمغمت مرة أخرى. انزلقت على لسانك كالماء، فيها طعم عود النوار والصدف البحري. أنجبتُك في الظل ثم قفلت هاربة خوفا من فقدانك. الظلال التي تتبعنا صارت قاتلة. شعرت بك تذوبين قطعة سكر ثم تلاشينا ابتسمت. كيف قلبك؟ لا أعلم. أحبك وانتهى. كم كنت غبياً. كان يجب اختصار المسافات القديمة، وربح الأزمنة التي أحرقها الضياع. أتساءل أحياناً ماذا أحب فيك؟؟ لا أعلم. لكن حتماً هناك جوهر ما، في داخلك يستحيل أن تمسه الأيادي القذرة. مساء وأنا بالمتحف الكبير، حلمت كثيراً. كثيراً مثل عصفور صغير وجد نفسه فجأة يمارس حريته. قلتِ سنتزوج وننجب طفلة جمالها يثير الدهشة. عيونها بسعة البحر. نزوقها مثل الدمية ونضعها على الفراش الجميل بدفئه. نسميها ريما، فأنا أعشق هذا الاسم. سنسافر، نسافر كثيراً وبعيداً حيث

ننسى هواء هذه البلاد المؤكسد. أنت تشتغل وأنا أشتغل. نتابع دراستنا. أو بكل بساطة نخرج للراحة وحين نعود للوطن نبتدئ من البداية. نتحول إلى أطفال وندرس في أقرب المدارس الابتدائية. ليس مهماً. أنا متأكدة من أننا سنعيش سعداء. لا شيء يمنعنا من ذلك. لم يعد لنا ما نخسره. حتى البيت استلمته نهائياً الزوجة التي نسيت بسرعة الساموراي. حتى تتخلص مني أقنعت زوجها بأني أدنى من حيوان أو مومس أهملها عشاقها. حجزتني في حجرة ومنعتني من استقبال حتى الهواء. قلت لك بيتنا يضمنا كلنا. قالت لك أمي، الوسع في القلوب. قلتِ أمهلوني بعض الأيام. أريد ترتيب أموري قبل مغادرة البيت. وظل ملجأنا الوحيد. فندق سيدي الهواري. ذات مرة، مع شتاءات المساءات الباردة، كنا مندمجين كألسنة النار، متقاطعين تقاطع نجمتين هاربتين. لم ننتبه لتفاصيل اللحظة. إلا والباب تُدق بعنف. مازلت أحفظ الدقة وخشونة اليد وهي تهوي على الخشب الثقيل. إنها تشبه ناقوس الخطر. يا ربك فاقونا؟ تهردت؟ يا ربي تحفظ! أنهار جسمانا تحت رفس اليد الخشنة. تراقصت عيونك خجلاً وخوفاً. واش راح يقولوا علينا؟ فضحتنا رائحة الحب التي خرجت من فجوات الباب الذي شرع عن آخره تحت صرخة الرجل المتوحش، العامل في النزل الذي كان يجد لذة كبيرة في تخويفنا: هاها. يا أولاد الحرام، وين تروحوا مني؟ بالجرم المشهود. كنا عادة قبل الدخول، نمر على الفندق. يحجز كل واحد منا حجرته الخاصة لإيهام العسس، نوضب أمورنا تمويهاً ثم نختبئ في حجرة واحدة حتى الصباح. عينا العامل المتغطرس كانتا كعيني كلب مسعور.

- ما نسمع والو، قبضتك حيا والسلام.

- واش درت؟ أرجوك حاول أن تفهمني.

- حسبتموني حماراً؟ الفأر يلعب مع القط. إذا كنت أنت الجن، أنا المارد لزرق.

- يا خويا أنت كل شيء ولكن أرجوك لا تظلمنا.

- لن أظلمكما. سأخبر الشرطة، هي نحو الماخور وأنت نحو الزنزانة. وهكذا لن أظلمكما.

- خلِّ قلبك أبيض. أنا مستعد أن أخرج أما هي فمشكلة في هذا الليل الأسود وأنت تعرف أولاد الحرام.

حاولت أن أشرح أنك مريم الوديعة وأن قلبك ألين من فرحة طفل صغير وأنك صديقتي وأن نيتنا كبيرة في الزواج. لم نمارس دعارة. ليس لدينا سكن. شبر واحد حوربنا فيه.

- ضع نفسك في مكاننا وستعذرنا. كنا نريد الهرب بعيداً من حقارة عيون الناس. فالأرض ضاقت على أجساد أحبتها.

لم يتكلم ولكنه أخذ السماعة. قال إنه على الرغم من كل ما قلناه له، سيطلب مركز الشرطة.

- هذا فندق وإلا بورديل (ماخور)؟

- أرجوك لا تفعلها. ستعقد المسألة أكثر من اللازم.

- واش راح نخسر أنا؟ لا شيء.

نظرت إلى وجهك. كدت أجهش غبنا. استيقظت في نزعات التدمير البدائية. لا يا ابن آدم لا تفعلها. قلت في نفسي. كان علي أن أحاول أكثر. وقفت بكامل عريي بينك وبينه. لبستِ ثيابك بسرعة.

- حاول أن تفهم وضعنا يرحم والديك. قد نتشابه في المأساة.

- لا أريد الدعارة في نزلي.

كدت أصرخ. الدعارة هي ما تمارسه الآن ضدنا. النزل ليس لك وأنت تعرف حالة الضعف التي نحن فيها، ولكني عدلت عن رأيي مخافة تعقيد الوضع أكثر.

- أنت مجرد عامل ونحن زبائن نحبك ونحب جميع الناس.

نظر إلى بعينين حافيتين. خاليتين من كل معنى. نزلت على

وجهه فجأة دماء الطيبة حين وضعت على ظهره الجاكيت الجلدي الأسود وسحبت من جيب السروال الدنانير المتبقية ووضعتها داخل صدره. ابتسم ابتسامة استمرت خمس دقائق.

ـ هي ما عليهش خليها أما أنت فغادر وبسرعة قبل أن أغير رأيي. أنا كي نزعف نصماط.

خرجت بدون تردد بعد أن أوصيت مريم بعدم فتح الباب مهما كان الطارق، أبحث ليلاً عن نزل به مكان شاغر.

سمعت صوت أقدامه وهي تتكسر على الإسمنت المبلط.

نزلت بعدها إلى قلب المدينة، على الظهر طعنة الكلمات التي لا مبرر لوجودها أبداً. كانت مقفرة. مداخلها حزينة وتخرج كل أشيائها الدفينة. مع بدايات الفجر عثرت على بقايا حجرة في فندق كئيب. قال لي صاحبه: هذا واش عندي، أدخل وإلا أخرج. نمت ساعتين ثم مررت عليك وخرجنا بعد أن تحول نزل سيدي الهواري إلى رماد الرأس. في الطريق همست في أذنك:

ـ يا لطيف، هذه ليلة وقل ليلة!

تذكرت أغنية أحمد وهبي، دندنت بسخرية.

هذي ليلة وقل ليلة،

واحنا فيها مونسين...

ـ تخيلي يا مريم، لو تلفن إلى الشرطة. كارثة!

ـ عمي ذاك ما يستنى. كان سيدفنني حية.

تمتمتك بدأت تغيب. لحمك ينزلق من بين أصابع اليد كالنور. شعرت بدفء انفتاح ساقيك. كان علي أن أتخلص من تعب الزهراء الفولونطارية التي كانت تعشق الجمباز. بدأت تنحدرين وحرارة ما مصحوبة بلذة بنفسجية تصعد إلى الرأس والقلب. ثم تغيبين مع بداية غياب أغنية *إيرين باباس.*

ستعود الساقية ذات يوم إلى البحر،

وستعود أنت يابييرو الصغير إلى التربة.

تمتمتك تحولت إلى ألم حاد Mon Amour.. آي.. آي..آه.. أحبك.. أموت فيك.. أكثر.. زد أكثر.. أرجوك لا تتوقف..

في اللحظة الأخيرة قبل أن أغوص في جسدك حتى التهلكة وتتحولين إلى قطة تموء من ألم اللذة، كنت قد غبت أنا الآخر في لحمك كالهواء الساخن. ودخلت السحابة البنفسجية التي كانت ترفرف مع الفراشات ذات الألوان القزحية. وحين فتحت عيني كان دماغي يؤلمني. طعم اللذة تغير، من فندق سيدي الهواري إلى فراش هذه المدينة البعيدة. مع ذلك، بقيت لحظة في الفراش استمتع بالدفء الذي كان ينبعث من رائحة جسدك الربيعية. عيناك في السقف وعيناي مدفونتان بين تفاصيل جسدك.

حبيبي كنت رائعاً. بيني وبين هذه اللحظة عمر. تعال الآن، قبل أن تغيبك المدينة. ألبسني ثيابي. أشعرني بلذة ارتدائها قطعة قطعة مثلما نزعتها قطعة قطعة. حسسني قدر ما تستطيع أني امرأة كاملة وأنك تستحقني. اللباس الأبيض الذي سرقناه بنصف ثمنه من أحد الشوارع الباريسية التي كان يقطن بها أحد الأحبة. اللباس المنقط الذي استقبلتك به عندما دخلت إلى هذه المدينة لأول مرة. هاه. التبان الذي تعمقت ثقوبه الناعمة على ملامس يديك الدافئتين. ارفع الكأس وانس كل شيء. سأملأ عليك ليلك.

ـ نخبك يا مريم.

ـ نخبك حبيبي. اغمض عينيك.

ـ يا مريم أنت مهبولة.

ـ أنت تخرس خالص.

ـ طيب، ها أنذا سكت نهائيا مثل الميت.

وحين فتحهما. سمعت صوتا رائعاً ينبعث من أعماق البيت.

كارمينا بورانا. هي لك. تذكرني كلما حزنت. افتح يا سمسم. فتحت الورقة. عيد ميلاد سعيد. أحبك يا غبي. نموت عليك يا مهبول. ثم قهقهت واندفنت من جديد داخل الصدر. بقيت لحظات طويلة أستعيد تفاصيل الساعات الماضية دقيقة، دقيقة، قبل أن أفتح عيني على حركة سفيان الجزويتي المشبوهة الذي بدأ يسمم حضوري. شعرت به يرتدي كسوته العسكرية المرصعة بالنياشين. أخذ حماماً دافئاً بالدم الفاتر الذي صعد فجأة إلى الدماغ. ثم ارتاح وراء المتاريس الرملية يعيد كتابة مذكراته وصياغة تقرير مشاهداته الليلة.

ـ يجب أن نمشي الآن عند أختك يا مريم.

ـ وأنت. ماذا ستفعل؟

ـ قلت لك سأنزل عند حميدو. وصباحاً أمر عليك وننزل إلى المطار لنسافر إلى البلاد التي ظلت عالقة في القلب كالمرض المزمن.

ـ ياه؟ كل هذه السنوات؟ هكذا تمر كالبرق وكأننا لم نمكث يوماً واحداً.

ـ يا الله يجب أن نخرج بسرعة.

تزحلقت يداك من على كتفي لترتميان إلى تحت. تحسست جسدك الطفولي. تمنيت أن أعريك من جديد ونحترق مرة أخرى

ـ ألا يوجد حل آخر؟

ـ لا أعتقد وإلا كنا فكرنا فيه.

قبل أن نفترق، ابتسمت ساخرة كعادتك في أصعب لحظات الخوف.

ـ وقيل درناها يا ولد الناس!

ـ رموزك الملغومة لم أعد أتقن فهمها.

- حبيبتك ستملأ عليك بيتك. أنا في فترة الإخصاب. لا يهمني إذا حملت منك. سأظل أحبك وأحب نطفتك حتى ولو حرمنا من الزواج.

- حبيبتي يا مريم.

ثم التصقت للمرة الأخيرة بقامتي التي كانت تطول حتى تمس الغيمة البنفسجية. صعدت إلى أنفي رائحة جسدك وعطرك التي تشبه فصل الربيع والحشائش والنباتات المتوحشة والبحر والصدف المتوسطي. قلت لا يهم. اللحظة أكبر. قلت دون كيشوت حُرم من هذه اللذة. وجدي الآخر الذي كان يؤتي به من الزرائب وكانت امرأته تكبره بأكثر من عشر سنوات. كان المسكين يؤتى به من بين أرجل الأغنام قبل أن يفر مرة أخرى من صرختها المعهودة: يا ويلي. جابوا لي فرخ حمام يولدني. المسكين كان مولعاً بالفرحة والثلج والمطر. واستطاع أن يطوع حليمة الفيل بعد عمر العشرة والملح.

- لماذا لا نذهب جميعاً عند أختي، هي طيبة ولا تضيق ذرعاً بنا. تحبنا على الأقل على الرغم من عقليتها الصعبة.

- زوجها المقعد مزعج وهي أكثر صعبة. سنضع عندها الحقائب وفي الصباح أمر عليك. الطائرة لن تقلع قبل الواحدة بعد الظهر. سأتلفن.

- نطلب سيارة؟

- من المستحسن. خصوصاً مع هذه الحقائب الثقيلة.

شعرت في لحظة ما بالباب تهتز وبالنوافذ تقلعها الظلمة والشعاع الأسود المتسرب عبر كوة الخوف. فتحته فلم أرغير عيون القطط الضالة التي سمنتها نفايات السكان. استيقظت فجأة من دمار اللحظة. ينوي قتلنا وتدميرنا يا مريم. يقول الذين رأوه أنه هنا. بدأ يأكل أطراف المدينة كأحد القوارض العملاقة. يريدك أكثر مما يريدني. أعمى، لا يفرق بيني وبينك.

- سأقضي الليلة عند حميدو.

ـ أحرز حالك. أحياناً أتساءل إذا لم تكن كل القصة مركبة مثلما حدث معنا في المرة الماضية؟

ـ مهما يكن، الحذر ضروري في مثل هذه الظروف. هؤلاء الناس يا مريم، يركبون ولكنهم يقتلون كذلك.

إنه هنا. نعم هنا. يقبع بين تجاويف الدماغ. سيظل يمارس تعاساته مع بقايا الرجل أو شبه الرجل الذي يدعى سفيان الجزويتي. اللحظة الجميلة اندحرت تحت نزعة القلق والخوف المفروض علينا. لم يعد لدينا وقت للتفكير. ربما كانت هذه هي الفرصة الأخيرة لتفادي التهلكة. يجب أن نخرج قبل أن أبدأ في التآكل مثل الحائط الهرم، وأعيد تشكيل الأزمة وفق ما أشتهي. كان يجب أن أجدك في المفترق. قيل أنك دخلت السوق الشعبية عن هذا طريق هذا المفترق. أي الطريقين هو الأصح. ومشيت نحو زاوية الغلط. كان يجب أن لا أبقى إلى هذا الوقت في مقهى القنديل استمع إلى زعبرات الفنانين المقتولين في أدق أشيائهم الصغيرة. أو نبقى في هذا البيت ونسكن البوقال الأكسجيني المرمى عبثا على أحد رفوف المطبخ المهملة، ريثما تمر الزوبعة ونخرج نحو المدينة.

ـ أحزم أمتعتك وطر بأقصى سرعة ممكنة، إذا كنت تريد الحفاظ على رأسك.

ها أنت قد استيقظت وبدأت توزع النصائح المجانية. يا لطيف كلامك لا يعمل إلا على تعميق المواقف وتضخيمها. يا أخي اهتم بحالتك جيداً وبتعاساتك المسائية. وجرب نفسك جيداً، حين تدخل المرحاض، هل أن ذكرك الضامر ما يزال قادراً على الانتصاب أم لا وأسأل شقاوة المدفونة علمتك كيف تقطع مع عاداتك القديمة ومهنتك الرديئة التي بموجبها تأتي المرأة من حيث لم يفكر الله ولا الملائكة: مؤخرات النساء؟ عيب عليك يا رجل. حرام. بهدلة. رائحة فمك يا سفيان، كريهة جداً. أتصور أنك لم تغتسل من هذه النومة العميقة التي أجبرت عليها.

ـ يا أخي أنت في الزبل، اتركنا في همنا يرحم والديك.

لم التفت نحوه إذ كانت عينا مريم مرتشقتين في وجهي.

ـ مادمت مصمماً. هز الحقائب وأوقف سيارة.

لم يعد لدينا الوقت الكافي لملء جماليات اللحظة. من يدري، ربما كانت هي الليلة الأخيرة بالفعل. عند العتبة (الباب وجد مفتوحاً. يتسرب شعاع أسود من فتحتي النافذة. هكذا قلت قبل أن نغوص حتى التهلكة في أعماق بعضنا بعضاً). مددت يدك، سحبتني نحوك. في عينيك نبوة لا تقاوم. تحسست برؤوس أصابعي المرتعشة، جسمك المرمري مرة أخرى. قطعة كريستال يا الله. قبلتك. ربما كانت القبلة الأخيرة. من يدري؟ حين فتحت الباب وشرعته عن آخره واستقبلتنا برودته، كان سفيان قد انهمك في تسجيل انطباعاته الأخيرة في تقريره الذي أتصور أنه بعد أيام قليلة سيحتفل به وبإتمام العشرة آلاف صفحة من قياس الفولسكاب.

الضباب كان قد انتشر كالكفن على وجه المدينة. هل كانت هي الحقيقة أم كنت سكراناً؟ لا أعلم جيداً لأن السيارة التي سحبتنا من عند الباب، كانت مسرعة. وجهه ذكرني بالسائق نفسه الذي قذفتني سيارته في هذا المنحدر قبل أن أسمع صوت الباب وهو يفتح في وجهي. كانت الساعة وقتها العاشرة تقريبا. والآن قد شارفت على منتصف الليل، أشياء كثيرة تغيرت.

ياه! التفاصيل التي كنت أظنها ماتت، تتدافع الآن نحو الذاكرة بقوة. ونحن في السيارة، متجهين نحو بيت أختك، تفحصتك من جديد. كان شعرك الساحلي مبعثراً ومع ذلك، يعطيك نزعة تعبدية خاصة لا يقفها المرء إلا أمام الأنبياء. عيناك هادئتان. تتأملين تفاصيل المدينة التي نامت على جروحها قبل أن يجبرها الضباب على التخفي أمام أحبتها. الكفن البارد صعب. فقد صار فينا. كنا نكتشف تفاصيل المدينة بمزيد من الأشواق والسعادة وكأننا دخلناها للمرة الأولى على الرغم من الخوف والخيبة وآلام القلب.

ـ شوف يا حبيبي المدينة كم هي رائعة. هذا الضباب يجنن.

ـ أرض الله واسعة، بقدر ما تضيق، تنفتح في أمكنة أخرى. الأمكنة الأكثر ضيقاً، أحياناً.

حين نزلنا، قال السائق الطيب:

ـ من عينيكم باينين عشاق. الله يحفظكم يا أولاد.

ـ يكثر خيرك.

ابتسمنا ثم انزلقنا نحو باب أختك.

ـ ما تنساش تفوت علي، الطيارة تقلع على الواحدة.

عندما فتح لنا الباب لم نر شيئاً سوى وجه أختك الإسمنتي التي استفزتني وهي تحاول تكميم صرخات زوجها المقعد البارد مثل أحجار الوديان الجافة. حييتهما ثم افترقنا على أمل اللقاء غداً. سأذهب عند صديقي الوحيد في هذه المدينة حميدو. حتى السيارات كانت قد انقطعت. وجدت نفسي مجبراً على قطع المسافة الفاصلة بيني وبين صديقي مشياً على الأقدام. وأنا أقطع المعابر الضيقة كنت أفكر فيك وأنت تتأملين أختك وهي منهمكة في ترتيب شؤون زوجها أو وهي تستجيب لصرخاته وهو يناديها لتنام معه أو لتأخذه إلى المرحاض أو لتنظفه. يمارس عادته السرية المعهودة، على أصوات النساء اللواتي يتخيل نعومة أجسادهن ويترقب حتى تنتهي العشر سنوات لينزع اللفافة من عينيه ويعيد اكتشاف صياغة العالم الجديدة. على الرغم من الكآبة، غمرتني رائحة جسدك الربيعية. حبيبتك ستملأ عليك بيتك. أنا في فترة الإخصاب.. و.. و.. وتفاصيل الأغنية التي مضت على ظهر الغيمة البنفسجية.

الساقية تبدأ في التكوين مثل الجنين، يابيبيرو الصغير

هي قطرة أو قطرتان من المطر،

وأنت لؤلؤة أو لؤلؤتان من الحياة..

الفصل العاشر

مسافات الضياع

بدأ الوهن يعلو كامل الجسد الذي لم يعد يجري ولكني كنت أجره جراً كجسم ثقيل ومتهالك. أشعر بالركبتين قد بدأتا في الانكسار والتثاقل. حرارة الدم الذي ينزف تتحول شيئاً فشيئاً إلى برودة تنطلق من أعلى الظهر لتمس كامل الجسد. تتقاطع مع كلمات القتلة الذين وضعوا سفيان الجزويتي في دماغي قبل أن يطلقوا سراحي.. هاها يا ولد العطاية. في الاتحاد الطلابي وتكتب شعراً معادياً. أقسم برأسك يا سيدي، أنا لم أعد أكتب شعراً. اسألوا سفيان الجزويتي فهو يقف في الدماغ كالرمح. كلما أخطأت في التقييم أعادني إلى جادة الصواب. أقسم برؤوسكم التي لا ينفذ إليها شعاع النور. يجب أن نتحمل كآبات مدينتنا. تذكرت الورقة القضائية التي كانت ما تزال بيدي تفوح منها رائحة الكتب الصفراء والورق البردي وشيء من خشب مكاتب المحاكم. الحضور إجباري حتى لا تتخذ إجراءات قضائية صارمة ضدكم. شكراً.

كان سفيان قد أخرج كل مذكراتي وأشيائي السرية التي أحفظها وبدأ يتفحصها في استراحة المحارب ورقة، ورقة. لم يجد شيئاً مهماً ستحق التدوين يمكن إضافته إلى التقرير الضخم. مصر حتى الموت على إتمام كل شيء قبل أن نركب طائرة العودة. ينتظر بفارغ الصبر الكلمة الأخيرة التي يختم بها تقريره.

ـ درت يا فاوست المسكين، وآخرها عدت منكسر الرأس.

- أنت تتشفى فيّ؟ أعود إلى أرضي ووطني. حقي الأدنى كمواطن.

- وطنك؟! عندما تنغلق في وجهك كل السبل.

- اطمئن. نهايتك في هذا المخ المتعب وشيكة. ستخرج اليوم أو غدا.

- الذي لا تعرفه يا فاوست هو أن حياتك رهينة بوجودي في دماغك.

- الموت! ليكن. المهم أن لا أسمع صوتك أبداً. بعد نهايتك المفجعة سأحتفل مع مريم بكتابة الشعر بحرية وحب. أنت تعرف، توقفت عن النشر منذ دخلت دمي.

- قل أنك تبرز جبنك وضعفك. أنت تخاف العودة إلى الحفرة السوداء. أصابك جفاف الكتابة يا صاحبي.

- ربما. لكن المؤكد أنك ستسقط في كل الأحوال. عودتي إلى أرضي، قد تنهي دورك.

- في الوقت الحالي ما زلت هنا.

ضممت القداحة والقلم إلى قلبي وشريط *كارمينا بورانا*. الجرح الملعون يحفر جسدي ويعذبني. عاد إلى النزف بقوة وبدأت أشعر كأن اتزاني غير طبيعي. حين تلمست القميص، شعرت به مبللاً بالدم بشكل مخيف. لقد نزفت كثيراً. هذا الجرح يزداد تمزقا واتساعا، كلما مشيت في هذه الأزقة المظلمة وهذه الشوارع، زاد ألماً وضغطاً. كان علي أن أتكئ على الحائط وانتظر قدوم سيارة تأتي ولا تأتي. الحائط المثقوب من حرب مضت، أكلت الأخضر واليابس ولم نعد نتذكرها. الحيطان أخافتني. كلها تصرخ بالإعلانات القاتلة. رأيت طفل الإعلانات المنهمك في ممارسة العادة السرية لإثارة الذين فقدوا الفحولة، يرتدي ألبسته قطعة قطعة بعد أدى وظيفته الإعلانية كما يجب. كانت عيناه مثبتتين على المارة

المنهمكين في تفاصيل الإعلان الجانبي الخاص بسيجارة مارلبورو التي حكمت أفواه الناس ردحاً من الزمن. سيجارة تطفئ الظمأ. مارلبورو هي الكمال بالمتعة.

سأحاول أن أسرع قليلاً. صديقي الوحيد في هذه المدينة طيب جداً سيقوم بتنظيف الجرح. وحتماً سيأخذني إلى المستشفى. أتلقى الإسعافات الأولية. لكن مسألة سفري يجب أن لا تكون مثار نقاش سأسافر غداً مهما كان الألم. ما في ذلك أي شك. وأمر على مريم قبل الساعة العاشرة. الطائرة لا تقلع إلا على الساعة الواحدة. لن يستطيع هذا الجرح أن يصل إلى دقات القلب، لن يشل أعضائي ومفاصلي المتعبة. فهو ليس بالخطورة الكبرى التي تقعدني عدة أيام أخر وتفقدني اتزاني مع الحياة. فأنا لم أفقده حتى في أقصى درجات الخيبة. سيأخذني حميدو عند أقرب طبيب. سيقوم بالواجب أو أكثر. وفي الصباح أنزل مع مريم إلى المطار بدون إخبار أحد ونسافر. كم ستكون أمي مسرورة. فاطمة الهجالة، بيننا زمن من البكاء والحفر السوداء التي تنام في قعر المدينة. مريم تعرف الناس، ذوقها رفيع وحاستها بالأشياء الجميلة غير عادية. اشترت هدايا لكل الطيبين الذين تعرفهم في البلدة التي في القلب. كم هو جميل أن نجد في المطارات من يستقبلنا وفي يده باقة ورد. وجميل أن تنزل من ذعر الرحلة التي تخاف أن تودي بحياتك قبل أن تلثم الأرض الجميلة التي أكلت قلبك. جميل أن ترفع رأسك في الفضاءات الواسعة، فترى أيادي تلوح لك، في عيونك ترقص أفراح عذبتها سنوات البعد الذي يفقدنا اتزاننا مع شقاوة التفاصيل التي تحيط بنا. مريم نزلت إلى السوق هذا الصباح. قالت بقيت تفاصيل صغيرة يجب إتمامها. لكن مفترق السوق الشعبية الكبيرة ضيعني. لو وجدتها لتغير كل شيء. قالوا يحتمل أن تكون قد سلكت هذا الطريق. كانوا يعرفون اتجاهك. أقسم برأسك يا مريم أنهم كانوا يعرفون، قرأت ذلك في عيونهم التي كانت الرمشات تفضح أسرارها. لو وجدتك لما حدث لي

ما حدث. كانت لعبته أقوى. النافذة يتسرب منها شعاع أسود مخيف جداً. الباب نصف مشرع. قلتِ، ربما نسيت المفتاح. قلتُ، إنه هو. البرد لا يفتح الأبواب ولا يدفع الأشعة السوداء إلى التسرب من شقوق ألواح النوافذ. حين دخلت الحجرة، لم أر شيئاً إلا كتاب إميل زولا Une Page D'Amour. تخيلتك معلقة في النافذة تقرئين صفحاته المتبقية. كنت متحمساً لإخبارك بكل التفاصيل، حتى بورقة القضاء. الدعوة الملعونة التي وجدتها في صندوق البريد. لكنك لم تتيحي لي فرصة الكلام. كنت قلقة أكثر مني. كل الدلائل كانت تدل على أني سأكون ضحية لعبة قذرة ومصادفة عجيبة. في السوق الشعبية جريت حتى جف لعابي. قطعته في ظرف ربع ساعة وهو رقم قياسي إذا ما قيس بمساحة السوق. كان يجب أن أراك قبل أن أعود، لكن عبثا. كنت واثقاً من نفسي بالعثور عليك. أنا أشم رائحتك ورائحة الخطر، من بعد بعيد. أعرف رأسك من بين آلاف الرؤوس التي تتزاحم فيها الأحلام التي لم تتحقق. أعرف مشيتك. أشعر بوجودك. صرختك لو تأتي من الربع الخالي، تحرك قلبي فأهرع إليك حافي القدمين والذاكرة وأجري. أجري حتى التهلكة. هذا هو الحظ الزفت.

قولي أن الحب أعمى للحد الذي يجعلنا نرتكب الحماقات في حق الأشياء والوجوه التي تستحق العبادة. لو عثرت عليك في منتصف النهار، لكان الوضع قد تغير تماماً. كنا قد وجدنا متسعاً من الوقت للهروب من رائحة هذا الرجل الكريهة. يقتلنا الخوف. لا يستطيع أن يمارس عملته أمام الوجوه المندهشة من تفاصيل المدينة والعيون المفتوحة باتساع مخيف. لو فقط، كنا ذهبنا إلى مكان خاص. فندق المطار، الأقرب من الطائرة والأكثر أمناً. لكن مع تلك الظلمة والحظ المقتول، لم يكن أمامنا إلا الذهاب عند أختك التي تشعرك بأنها تحسب عدد الملاعق التي تدخل الفم وتخرج منه وزوجها الذي لم تعلمه عيونه الموصدة وعاهاته المتعددة إلا محاولة النظر صوب صوتك حد الإحراج. خفت أن أقولها لك. حالة الموت هي الحالة الوحيدة التي تشعرنا بتفاصيلها قبل حدوثها.

وأنت. مريم الوديعة. مزيتك أنك تتشممين الوضع قبل انكساره والخطر قبل حدوثه.

- أعرف أن زوج أختي يزعجني بعينيه الموصدتين، بل يرعبني، لكنه مسكين ومهدود.

- لا أستبعد أن يستحضر صوتك وهو في المرحاض.

- يا سيدي، خليه يحلم. واش راح يدير؟

يوم اتخذنا قرار العودة، أنت التي اشتريت البطاقات. قلتِ، يجب أن نحل هذا الإشكال حتى نحسم حالة التردد. مادمت مصمماً على العودة سنعود. في هذا الصباح بالضبط. قلت سأتأخر قليلاً. لم أنته من المشروبات ولم يبق أمامنا إلا نهار اليوم. نصفّي كل الأمور.. و.. و.. نتزوج.. ها..ها.. دغدغتك الفراشات الملونة والشموس التي تسكن تحت جلدك. نتزوج وننجب أطفالا كثيرين. أفضل أن يكونوا 24 حتى يتسنى لنا تكوين فريقين لكرة القدم وأنشط أنا وأنت كحكام لكل المباريات. الأيام كانت رائعة في هذه المدينة التي تشبه مدينة ساحلية. كل سنة ننجب أربع.

- أعدك بذلك، شد فقط همتك.

- الله يعطيني القوة الكافية.

- سأنهكك ولن أتركك ترتاح.

- من قال لك أني أريد أن أرتاح منك؟

- أنا سأودع بعض الأصدقاء.

- أنتهي من المشتريات ثم أمر على الكوافير. وأودع صديقتي، بعدها نلتقي في البيت.

- لا تتأخري كثيراً.

- وأنت لا تشغل نفسك أكثر من اللاّزم. عندي لك مفاجأة هذا المساء. لم أنس عيد ميلادك.

- المهم هو أن نبقى مع بعض وأن نتجاوز هذه المأساة.

في الصباح البارد خرجنا. عند الباب قبلتني ثم انسحبت نحو السوق الشعبية الكبرى بينما سرت أنا صوب المقاهي، والبريد لتصيد إخبار البلد، فلم أعثر إلا على هذه الورقة التافهة. ستتخذ إجراءات صارمة ضدكم. طز. شكراً. سمعت بخبر وجوده في المدينة. خفت عليك وعلي من حماقاته وتفاهاته المجانية. في عيونه شر دفين. قالوا انهم رأوك قبل لحظة فقط في المفترق المؤدي إلى السوق الشعبية وأنت تتحدثين مع إحدى زميلاتك التي كانت تشتهي قامتك الجميلة وعيونك الهادئة والواسعة سعة قلبك. يقول الذين واجهوه في المطار إنه كان غاضباً جداً. في يده أشياء بدون أسماء ولا ملامح. عيناه متعبتان من عناء السفر ومشقة الطريق، عليهما نظارتان سوداوان. ينزعهما ويعيدهما بعصبية وارتباك كبيرين. يحك بؤبؤ عينيه الذي لم يعد يميز بين الظلام والنور الذي كان يتكسر على زجاج نظارتيه. سمعه الكثيرون يقسم بأغلظ الإيمان أنه سيأخذ حقه بيده. ثم أخرج شيئاً معدنياً حاداً يشبه السكين ثم غاب على أطراف المدينة وداخل شرايينها. بعض الذين التقى بهم مصادفة، أوصاهم أن لا يحكوا عنه أنه هنا، لأن مهمته تقتضي السرية التامة.

الورقة القضائية بدأت تزعجني. شعرت بنفسي أحمل ثقلاً مخيفاً. تفو. شكراً. قضيت اليوم كله في الدوران مثل فار وضع داخل متاهة. وفي كل لحظة أشعر بعيونه مرتشقة على الظهر كالسيف. انتهى بي الضياع إلى مقهى القناديل الذي يذكر بالمصحات العقلية. قالوا ابق. قلت لا والله أبحث عن مريم. قالوا اجلس يا رجل. اشرب كأسا. مريم ليست طفلة. لم أستطع رفض طيبتهم. وحتى المقهى الذي يشبه مقهى أفلام رعاة البقر جذبني إليه. كأس باردة بعد هذا الجري وبعدها أقوم من جديد. يقولون إنهم يأتون إلى القناديل تواضعاً منهم حتى لا يتهمون بالتكبر على الجماهير العريضة. كنا نشرب عندما دخل الكوسموبوليت الشرقي، كما يحلو له أن يسمي نفسه (الشاعر المغرم ببعثرة كل ورق المراحيض انتقاما من السلطة ومن الإمبريالية الغاشمة. يقول إن

محاربة السلطة تبدأ من التفاصيل الصغيرة. لم أعلم إلا بعد زمن بعيد بأن الشرقي كان مريضا بالبواسير المزعج) مرضه يوشك أن يحوله إلى رجل فر من مصحة عقلية. يشبه نفسه عبثاً بدون كيشوت في حزنه ولوعته الإنسانية. لكني أشعر دائماً أن مثل هذا التشبيه يظلم جدي ويتفهه بشكل مزعج. شرب ثم بدأ يصف المعارك الأخيرة التي حضرها في المملكة المجاورة. قال إنه كان هناك وعاش التفاصيل الصغيرة والكبيرة بعينيه ورجليه وقلبه وشعر رأسه وحذائه المملوء وحلاً والذي وضعه على الطاولة أمامنا كشاهد علني على ما كان يقوله. يجب أن نظل مرتبطين بالعالم إذا شئنا تغييره. يقول، نزعتي كوسموبوليتية. ما جدوى التغيير إذا لم يكن المرء كوسموبوليتيا لتحقيق الثورة العربية الكبرى؟ يجب أن نبيع الروح مقابل أن نحرر هذا العالم. ولولا إيماني القاطع بانتصار الثورة الكبرى لبقيت في البيت. سعيد كان منبهراً والشاعر صاحب الدواوين المائة كان فاغراً فمه في جرأة صديقه الشرقي الكوسموبوليتي. ينغص عليه أحدهم.

- لم أرك في المقاومة. لكني رأيتك في بلدتك قبل أسبوع.

- أنت تعرف، نحن نذهب ونعود. حركتي صارت كبيرة.

- لكن الطريق إلى مملكتك للمقاومة، مغلق من زمان.

ارتبك مرة أخري لكنه بقي صامداً. أخرج عينيه البارزتين أكثر ثم انكفأ على الطاولة بعد كأس البيرة الرابعة. أريد كأسا أخرى. قال. لم آت هنا لتبرير موقفي الكوسموبوليتي. أنا هكذا.

بدأنا في رفع الأنخاب واحداً واحداً. حين وصلنا لنخبك يا مريم. كانت الأشياء الدفينة قد استيقظت لكن هذا لم يمنع حركة الغيمة البنفسجية تحت الجلد، ورفرفة الفراشات الملونة. رفع الشرقي عينيه الباردتين نحونا.

- أنا ارفض حالة الاستسلام المجاني. أنتم تخدمون الإمبريالية.

يقول، يجب أن نقاوم البؤس. الحقيقة أنا لا احترم من الناس الذين مروا على هذا القرن إلا شخصية تروتسكي. لقد كان صديقاً للعرب ويعرف تفاصيل أزمتهم الكبرى. أشعر أن فيه دماً عربياً حاراً. عاشت الثورة الدائمة. عاشت. عاشت. ثم يرفع يديه عالياً ويشبكهما فوق رأسه. عاش *سلفادور دالي* العملاق الذي فهم عقدنا الجنسية من خلال حبيبته غالا.

ـ يا أخي، ارتح من فضلك. لست في مهرجان خطابي.

ـ من حقنا أن نقاوم حالة الإخفاق المستشرية.

ثم نظر إليه بعينين حاقدتين. انتفض ثم دخل إلى المرحاض ولم نعد نسمع إلا خرخشة الورق في الداخل وكأنه أحد القوارض. محاربة السلطة تبدأ من الأشياء الصغيرة. ثم يحني رأسه ليتذكر معاناة مرض البواسير. مصمم حتى العظم على أن يغرق الدولة في ديونها بكساد معجون الأسنان الذي تستورده من الخارج. يصرخ قبل أن يندفن داخل المراحيض: لن أغسل أسناني بالمساحيق الإمبريالية. من يدريني أنها ليست مصنوعة من مخ أطفال الفيتنام؟ إني اشعر بذلك حين أغسل أسناني. صممت على الإضراب حتى ولو انتهى بي ذلك إلى الموت. في موقفه هذا يشترك مع صديقه سعيد المريض بالقلب والذي صمم على محاربة الدولة بعدم غسل وجهه حتى تغرق المدينة بفائض المياه. العلاقة بيني وبين الشرقي مصيرية يقول، تصوروا لو أضرب الناس كلهم عن غسل وجوههم ماذا يحدث بالماء. ستتحول المدينة إلى بحر وسيغرق المسؤولون.

معظم رواد هذا المقهى، تحولت أحلامهم إلى بؤس طفولي مكرور ومريض. يتمنون عبثا، أن يقادوا إلى اقرب مخفر ليكون سجنهم، شاهداً كبيراً على أهميتهم. يتمنون أن يتحولوا وفي أقرب الأوقات إلى شهداء هذه المدينة، التي فقدت اتزانها مع الحياة. في الزاوية المقابلة لنا، كان أحدهم ينظر ويبتسم نحونا، ويكتب الإهداء تلو الإهداء ويجلد الناس بديوانه الرقم المائة. أقام مأدبة بهذه

المناسبة. جاءنا بديوانه الأخير الذي يحمل عنوان: *أنا.. مرة أخرى. أنا.. دائماً.*

ـ أتمنى أن لا أزعجكم.

يا أصدقائي. يقول بحماس كبير. لماذا الخوف من الكبار. الكبار نحن الذين صنعناهم. سنحضر جنازاتهم الشعرية. من يكون أدونيس؟ ريتسوس؟ غليفيك من يكون؟ درويش؟ ناظم حكمت؟ وحتى السياب، باستثناء التأسيس لا يملك أية شرعية فنية. وعلى فكرة، أنا أكرهه لإنتاجه الشحيح وموهبته الخجولة والمتواضعة جداً. لنتعلم كيف نضع النقاط على الحروف بدون خوف مسبق. سنحرر القوافي. لنقل إن جيلنا سيحرر الثقافة العربية من ركامات سيبويه وابن جني والزمخشري والفيروز أبادي وأبو الفرج الأصفهاني الذي لم يفعل شيئاً، أكثر من الاستمتاع بأخبار الناس.

المسكين. شاعر بمائة ديوان. مصر على أن اسمه أصبح معروفاً في العالم كله ولهذا، فهو مثار حسد الكبار. يقول، لقد ترجمت حتى إلى اللغة العبرية. وهو غير راض على هذه الترجمة لأنه يظن أنها عملية مقصودة تستهدف موهبته وتشويه سمعته لما للمترجم من علاقات مشبوهة بالدوائر الصهيونية.

ـ يا أخي الواحد ما يعرفش لماذا يفعل الناس المستحيل لتشويهك عالمياً ومع الأصدقاء في الدول الاشتراكية؟ نكاية فيهم، ها أنا ذا قد أغلقت الرقم المائة. *أنا.. مرة أخرى.. أنا.. دائما*. مائة ديوان بالتمام والكمال. أستطيع أن أموت مرتاحاً. وبالرغم من صغر سني أقل من الثلاثين أستطيع أن أشهد أني أعطيت. لقد صرت اليوم كاتباً عالمياً اخترق حدود بلدته الضيقة.

يخيل للمرء أنه بدا يموت بالتقسيط في هذه المصحة العقلية. أحياناً أقسم أن لا أعود لأوهامها أبداً. لكن صديقي حميدو يصر دائماً، فلا أستطيع تجاوز اقتراحاته لأنه يأخذ المسائل دائماً من أوجهها السيئة.

- أريد، إذا سمحتم، أن أعرف قليلاً عن صالح ولد لخضر لصنامي. سمعت أنه هنا.

- يا أخي لماذا ينقل الواحد بؤسه معه ليقتل به فرح الناس.

كانت لهجة حميدو قاسية. إذا كنت تخاف من إزعاجاته، تعال إلى بيتي نقضي الليل مع بعض. والآن، اشرب معنا وغير هذا الوجه. مريم ستعود من السوق، ليست طفلة.

يا الله. يتساهلون مع كل شيء إلا مع قصورهم الداخلي الذي ينتفض بعد كل كأس في شكل وهم مدمر لكل الأنجم التي يحلم المرء بمعانقتها. كنت أريد أن أخرج لكن البرد أقعدني ثم أقنعت نفسي بأن مريم ستتأخر ولن أجدها حتى ولو عدت إلى البيت. ومع الكأس العاشرة، كانت الجلسة قد بدأت تدغدغني مع الفراشات الملونة والشمس التي يختبئ دفؤها تحت الجلد. أخذتني طرافة أحاديث الكوسموبوليت والغزوات اليومية التي يخوضها والوجوه غير الأليفة التي يحلو لها تحسس مؤخراتها. عيونها تتخذ اتساعاً مدهشاً يغيب ملامحها شيئاً فشيئاً. والدواوين المائة والرجل الذي افتقد علاقته بالواقع وبدأ يعيش الوهم ويتصور أنه حقيقة. مصر على محاربة السلطة حتى الموت بعدم غسل وجهه في انتظار حدوث فيضان وغرق المدينة. قلت سأذهب. قالوا كاس مريم. زد كأسا أخرى. ليلتك الأخيرة معنا.. سنشتاق إليك كثيراً. لمريم هذا الكأس قبل أن تلدها الموجة وتهرب ذعراً. لمريم هذا الفرح الذي لا يتنازل عن الشوق حتى الموت. لودعه مشتتة سبعة التي أحرقت المناجل الصدئة في حرب الدمار التي لم نرث منها إلا الأحجار المخرمة والجماجم الجوفاء والوجوه التي غيبت الأعشاب البرية ملامحها. حين طلت التاسعة والنصف، كانت الغيمة البنفسجية قد بدأت تنط مع الشمس والفراشات الملونة. شعرت بالزمن يهرب من بين أصابعي التي فقدت جزءاً من اتزانها. ابتسم حميدو.

- ها ها. يجب أن تقوم قبل أن تطلقك.

تمنيت أن أفهمه أن اليوم عيد ميلادي ويجب أن أكون بجانب مريم، لكني خفت أن أسحب ورائي هذه المصحة بكاملها. قد أمر عليك في ساعة متأخرة. أعذرني يا صديقي فأنا خائف على مريم.

ـ كان من الأجدر بك يا عزيزي فاوست أن تقول له إنك خائف على نفسك.

ـ ألم تتعب يا سفيان؟ ألم تفهم بعد بأني ومريم شيء واحد؟

ـ هذا تبرير أزفت مما تتصور.

حين نهضت. قام معي حميدو بتأدب زائد عن اللزوم.

ـ أتمنى أن تكون الأمسية قد راقت لك. أنت تعرف. هؤلاء هم أصدقائي. كنزي الثمين.

قبل أن ينسحب، راح يعانقهم واحداً واحداً وهم ينشجون ويشخرون وكأن بينهم قرناً من زمن الغياب والفراق.

كان الشرقي بعد عودته من المرحاض وجلسته المعذبة بسبب مرض البواسير، حزيناً جداً. يفكر في مصير المدينة القادمة التي سيدخلها محارباً قبل أن تجتاح جيوش القتلة المغول أسوارها. حين سمع طقطقات الأسنان والقبل، فز مذعوراً من مكانه وأخذ يقبل كل الجالسين ويودعهم ويطلب منهم أن يدعوا له بالخير والنجاة من دمار المدينة القادمة.

ـ هذه هي حالة الثوري الكوسموبوليت. يسترخص حياته من أجل القضايا الكبرى. نضاله كبير وأيامه معدودة.

كنت قد تزحلقت إلى قلب الشارع قبل أن يحجزني مدة ساعات أخرى، واضطر بالرغم من أنفي إلى سماع تفاصيل مآثر الشرقي المربكة التي يضيف لها وينقص بحسب الحاجة وبحسب طبيعة الموضوع. نسيت حتى أن أقول للجماعة ليلة سعيدة. حميدو أتحمله كثيراً، بوصفه الصديق الوحيد في هذه المدينة الكئيبة. أحياناً يجرني جراً إلى أجوائه. الشراب أفقده جماليته. أتصور أن مخه

تحول إلى ماء. لا يستطيع أن يخبئ دركياً أو شرطياً أو قزماً في رأسه مثلي، لأنهم في الأساس لا يحبذون كثيراً السكر. أكثر من ذلك، الشراب يقوم مقامهم. يقول عن نفسه إنه طيب جداً لكن الناس عاجزون عن فهمه وإدراك مقاصده الكبرى.

ـ يا حميدو. أنت عزيز علي وهذا الجو يعذبك.

ـ نشرب وخليها على ربك. حتى واحد ما يأخذ الدنيا معه.

ـ لكنك لا تشرب، أنت تنتحر.

ـ من الأفضل أن ترفع كأس من تحب وتسكت نهائياً.

ـ كل ما أفعله هو من أجلك.

ـ أعرف ولهذا أدعوك لمزيد من النسيان. الدنيا بنت الكلب.

لا أعود إلى مريم إلا في ساعات الفجر الأولى. أدخل الفراش بهدوء. تفاجئني عيناها المفتوحتان. مريم التي لا تنام بسهولة. أقبلها ثم أرقد متعباً على ابتسامتها الرائعة.

حميدو سيمنحني فرصة أخرى للحياة. الصديق الكبير الذي يتحمل ملاحظاتي وأتحمل شقاوته. من المعتوه الذي قال: قبل أن تقول الصديق، اغسل فمك سبع مرات بالماء والملح والزعفران وقشور الرمان وبعدها تستطيع الكلام إذا شئت. لكن قبل ذلك فكر قليلاً، السذاجة تكون أحياناً رديفاً طيباً وسهلاً للغباء المقصود. لنقل إن السذاجة هي غباء الأذكياء.

ـ من أنت؟

ـ تسأل عني يا سفيان. أنا لا شيء. مجرد مخلوق ورقي لا أكثر. فاوست الذي رفض أن يبيع روحه للشيطان فسرقها منه بقسوة كبيرة.

ـ ارحم نفسك، إنك تنزف بقوة.

تسأل عني الآن؟ رجل. مجرد رجل وحيد. متمترس وسط شارع

فظ وغبي. يتأمل ذرات الضباب الذي كان يكفن المدينة بنوع من الحنين. وجرح ممتد من المحيط إلى الخليج، نزفه يزداد أكثر ومعه تنفتح أبواب جهنم. أحاول أن أتكئ على حائط الإعلانات الهرم. أفكر بالعودة إلى مريم، لكن المسافة تبتعد والقلب يتمزق والجسد بدأ يأخذه الوهن. بيني وبينك يا حبيبتي هذا الجرح العملاق والأسوار الباردة التي وقفت فجأة بيننا. بيننا تمزقات الجروح وليلة حب وحيدة قتلها القاصرون. وجهك في القلب. وأنت في بؤبؤ العين. سأحرق نفسي حين أحزن حفاظا على صورتك وأكتب شيئاً بقلمك. هديتك الثمينة. سأسمع لشريط كارمينا بورانا وأطلب في وصيتي أن يدفن معي. سأتوصل إلى كنس سيقان الجزويتي من هذا الدماغ المتآكل. يجب الآن، في هذا الخلاء الموحش، أن أبحث عن براءة وجهك الخمري بدل البحث عن بوقال المحلول الأكسجيني، لأننا إذا اختبأنا، سيعشش هناك، بعيونه الواسعة التي لا تتسق مع حجمه وقامته الناتئة وحذائه الذي سرقه من جندي مقتول على جبهة الحروب الوطنية الغامضة.

أوف لماذا هذا القنوط الفجائي الذي نزل على عيني كالظلمة. لم يبق بيني وبين بيت صديقي الوحيد في المدينة إلا مسافة قليلة. يجب قطعها زحفاً إذا اقتضى الأمر. لكن صرخة طفل الإعلانات مزعجة. مرتبطة معي بالضربة الباردة التي هتكت الضلوع. فاجأني بالعادة السرية عند الكشك القديم. اضطهد الجرح النازف أكثر *[لا تكن صبيا. المرأة تحتاج إلى رجولتك]*. أشعر الآن بألمه الحاد وهو يطوط ذكره كقطعة مطاط رخيصة. الابتسامة المصنوعة بدقة ومقاسة بالميليمترات الدقيقة. الفم المفتوح. صرخة مطموسة مقابل فرنكات مجانية وصورة تغزو أسوار المدينة. أخال الطفل ضائعاً وخائفاً من المارة. حين يغادر دار الإشهار التي استأجرته، ينزع اللباس النظيف الذي أجبر على لبسه ويعيد ارتداء أشيائه الرثة. يخرج إلى الشارع الواسع. يلسعه البرد في العراء والقلق. يصرخ أمام المارة الذين قليلاً ما يلتفتون أو يتكلمون معه. مارلبورو.

كينت. مارلبورو. كينت. يا اللي تحب دخان المريكان والإنكليز. وحين يفاجأ من ورائه بقبضة حديدية قوية. ها. ها. يا ولد القحبة أنت هنا. أنت تعد انقلاباً داخلياً. تدمر اقتصاد الوطن الذي رويناه بدم الشهداء. أنت تخترق القانون. يا ولد العطاية. في الاتحاد الطلابي وتكتب أشعاراً معادية. الاتحاد سنعيده حين نشاء لا حين تشاءون. انزل من هناك الله ينزل عمرك. مثل النعامة تخبئ رأسك.

ـ لم أعد أطيق الآلام.

ـ قلت لك يا فاوست اجر ولا تلتفت. دعنا تختتم هذه المصيبة.

ـ أنا منهك يا سفيان.

ـ ما يزال فيك قدر من القوة يسمح لك على الأقل بالوصول إلى صديقك الوحيد في هذه المدينة.

ـ كأنك تستشفى في.

ـ أنت تتحامل علي كثيراً حتى عندما أحاول أن أساعدك.

لا وقت للحزن يا ابن فاطنة الهجالة. الجرح يتمدد وفرحة الليل تتقلص. لو وجدت سيارة، كنت ذهبت مباشرة إلى المستشفى لكن سوء حظي وطالعي. السيارة الوحيدة التي مرت مسرعة لم تلمح جثتي تحت كثافة هذا الضباب. أو من يدري؟ ربما تلقت أمراً لا سلكياً من طرف سفيان الجزويتي الملعون، بعدم التوقف. بائع الفول الساخن هو الوحيد الذي كان يملأ خواء هذا الشارع. فول ساخن مسألة تسيل لعاب الفم المتجمد. حين اقتربت منه رأيته بعين واحدة مثل سانطور منقرض. أخافني وأخفته. تأكدت أني أخفته لسبب واحد هو أني رأيته يتحسس المعدن الذي كان ينام هادئاً على خصره الأيمن. هو بدوره لم يبد عليه الارتياح. ما مبرر وجوده في هذا المكان بالذات وفي هذا الوقت القاسي وفي هذه الساعة الليلية المتأخرة؟ لماذا يتمترس هكذا، بهذا الجمود؟ تدور عيناه في كل الاتجاهات وهذه هي مزيته، لتستقر في النهاية على عربة الفول

ودفء البخار الذي ينبعث منها بقوة. وقفته صارمة، مثل عسكري بليد، لا يعرف أكثر من حفظ الأوامر المزعجة. لم يكن لدي الوقت الكافي للتدقيق في وجهه لأن نظرة سفيان وانضباطه سحباني باتجاه مزيد من الفراغ. وقف بذعر من وراء متاريسه الرملية وحيا بائع الفول تحية عسكرية. شعرت به يبول في سرواله خوفاً وذعراً. كان يتمنى أن لا يسأله الفوال عن أسراره الحميمة. مثلا عن حبه للغلمان. خاف أن يذكره بهذه العادة التعيسة التي كان يمارسها مع أصدقاء المدرسة قديماً. عن كرهه النساء سحنته المخيفة التي لا تقنع إلا بمزيد من القماءة والدمار. عن عينه الزجاجية التي يوهم الناس بأنها عين حقيقية. يقوسها في حركة مشابهة لكولمبو، وهماً منه أن هذه الحركة تعطيه جمالية خاصة وإدهاشاً. المرأة الوحيدة التي ضاجعها، هي القحبة التي اتهمته بالسخف والانحطاط والمرض والاتساخ والنذالة. كان هذا قبل أن يصبح مثل الكلب البوليسي وقبل أن يلتحق بدماغي المتعب ليتخبأ في إحدى الكويرات الحمراء في دمي وينام هناك بهدوء ليؤدي خدمته الاختيارية - الإجبارية وينصب المتاريس في محاولة جادة لدرء هجوم غير معلوم أو هكذا يتصور على الأقل.

هكذا تتوهم يا ابن فاطمة الهجالة. ربما كان سفيان طيباً. تظن أن الوهم حقيقة. وبعدها تقسم برأس دوليثنايا مثل جدك أن ما رأته عيناك وسمعته أذناك ليس أبداً مجرد خداع حواس متعبة.

كح..كح..كح.. بدأ صدري يضيق. أسعل سعالاً حاداً. الذي يمنعك يا سفيان من تهشيم هذا الدماغ هو أنك لم تتلق بعد إشارتك اللاسلكية التي تسمح لك بالقيام بالعملة على أحسن وجه ثم تنفخ صدرك المشوه مثل الديك. الحمد لله. أتممت ما كان علي إتمامه. الآن بدأنا نعرف بعضنا البعض. لم نعد غرباء مثلما في الأول حين دخلت منزعجاً وحاولت بصرامتك المفتعلة أن تفرض قوتك وسطوتك.

- يجب أن تحترمني يا رجل مثلما احترمك.

ـ الله غالب. أنت جزئي الموبوء الذي يلازمني كالمرض. أزمتك امرأة ووسيلتك للسيطرة معدن أبيض تتحسسه في كل لحظات فراغك. تعد أيامك المتبقية قبل أن تحال على التقاعد. تقتلك رائحة الكافور التي توضع تحت جلدك أو في أحد جيوب جسمك حتى لا تدود سريعا وحتى لا تزكم أنوف الجالسين معك. وتبدأ مرحلة الانحدار نحو جهنم التي تعاف جسدك المتحلل.

ـ أرجوك لا تدفعني إلى ارتكاب حماقة، أندم عليها.

فليكن. افعلها أيها الجزويتيي مثلما فعلتموها مع جدي المتوهج دون كيشوت. هل بقي لي ما أخاف عليه؟ العودة إلى مريم صعبة وأصبحت شبه مستحيلة. لن أعود إلا إذا دخلت المستشفى. لم تتلق بعد الإشارة التي تجعل حداً نهائياً لأحلامي المشوشة وتضعني رهن لعبتك المعدنية.

ـ كفى يا أخي فاوست. كفى أرجوك.

ـ تجعلني أعطف على سخافاتك وبؤسك يا سفيان.

ـ أخشى أن أفقد السيطرة على أعصابي وأقتلك.

ـ بالرغم من ذلك كله، لن تصير رجلاً. حاوي. لن ينتصب ذكرك ولو قتلتني.

لماذا احمرت عيناك؟ أنت الآن تتمنى من كل قلبك أن تفاجئك تلك الإشارة اللاسلكية التي تنتظرها من كل قلبك المتعب. لماذا تتخبأ وراء المتاريس التي تحوط بها نفسك خوفاً من فيضانات الدم ومن العدو الوهمي الذي لم تر وجهه أبداً ومن الزلزال الذي تخاف أن يفاجئك في الدماغ المهروش؟ لا تدخل رأسك هكذا بين الكويرات الحمر التي كانت تدفعك إلى الموت بين العروق والأنسجة الدموية الرقيقة. حركتك زادت ومعها زادت آلام الدماغ وشقاوة الجرح الذي لا يرحم. أشعر الآن بك وأنت تستعد للخروج بجزمتك الثقيلة وتهيئ نفسك للاندفاع الكبير إلى الأمام، بكل أشيائك الصدئة، الدفينة.

- سترى يا وحد الخبيث، نوري لك الدنيا كيفاش دايره.

- أنت الآن تظهر على صورتك الحقيقية.

- كنت أظن أنه بالإمكان إرجاعك إلى جادة الصواب ولكن الظاهر أنه ميؤوس منك.

الجرح يزداد اتساعاً وقسوة وبرودة. أسمع الآن تكتكة اللاسلكي بين يديك وأنت تبحث عن الموجة التي توصلك ببنادقهم التي لا تصمت أبداً.

- سترى يا ولد فاطنة الهجالة؟! راح نزبلك.

الفصل الحادي عشر

الحمامة المطوقة

قبل أن أطمس في الزاوية المظلمة التي فاجأتني بالسكين الباردة، ربما عن طريق المصادفة. وقبل أن يفاجئني وجه الصبي الذي مسخت يداه وأظافره المتسخة بممارسة عادة سرية مدفوعة الثمن سلفاً وبعلب المارلبورو التي يخبئها في كيس من الكتان القديم قبل أن تلتهمها منه الشوارع. وقبل أن تضطهدني عيون الموتى في هذه المدينة، تذكرت وجه أختك الإسمنتي. شوه علي متعة استعادة تفاصيل الليلة الأخيرة التي لم تنته. وجهك النبوي الذي تقاتلت من أجله أحلام ملوك العجم. شعرت بالزيف ينزل من الورقة القضائية التي كانت بيدي. قلت له طز. وأقول لك، ليفعل ما يشاء. أمامه أبواب المحاكم، يضرب رأسه على حيط. تذكرت في خلوة ما، عند الباب، أن صديقي يقول: بين الأخلاقي والسياسي مسافة، مسافة صغيرة جداً. وأنت تتأمل بناية جميلة، يمكن أن تتهم بتدبير انقلاب عسكري يمس أمن الدولة. قلتِ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً. حقارته تقززني. سأجبره على تطليقي. لم أعد زوجته. الورقة يبخر بها إذا شاء. ورأسك قلتها له في وجهه وكدت أملأ فمي بصاقاً وأتفهه أمام جميع خلق الله لكنني صراحة خفت أن يرتكب حماقة ضدي ولم أكن مستعدة للموت المبكر. احتفظ بالورقة ولا تهملها حتى لا تتهم بأنك تسخر وتتآمر على المصالح العليا للبلاد.

تذكرت جسدك الذي يشبه التفاحة الوطنية التي سرقت وعضها آدم بفرح وسذاجة. التفاحة الاستثنائية المقدسة التي كانت تنبت في

بلادنا وفجأة انطفأت بين أيدي القتلة. تفاحة بنت منصور اللي شق سبعة بحور. التفاحة التي احمرت وتسمرت مثل الجمرة. هكذا يقول الذين رأوها قبل أن يلمسها جيل المعاصي. في خلوتنا نتذكر مع بعضنا البعض الآلام التي مسحت من الشوارع، أفراح زمفير الذي كنست أغانيه. وتمتمتك المتكررة لحظة الاحتراق Mon Amour. أنت تمارس الحب بشكل رائع. أنا في فترة الإخصاب. خفت أن أسمعك فاضحك. مدهش شبقك وحبك حين تعود من قلب الشوارع التي اكتسحتها القطط السمينة. وجه أختك الذي ختم بوشم الجدري الأبدي وبتراب الأسمنت. مصرة على إزعاجي من الأول حتى آخر لحظة. قبل أن نجد عملاً ونحصل على سكن متواضع بمساعدة بعض الأصدقاء. قالت لك: واش حبيتِ في هذاك التالف؟ مريب ومشبوه ومصاب بلوثة جنون. يحدث نفسه ويكتب شعراً معادياً لوطنه. ممسوس. باسم الله الرحمن الرحيم. من عندك الستر يا الله. ضحكت ملء شدقيك ثم قلتِ، ولهذا كله فأنا أحبه. كانت في العمق تغار من سعادتك وآلامك. كنت جميلة ومدهشة وكانت تحلم بأن تجد لك عملاً مناسباً، كما تقول لك دائماً. فهي تغيب النهار كله لتعود مساء منهكة مساء. تتحمم ثم تنظف زوجها المقعد بالصرخات الحادة وتعد حصيلة يومها ثم تنام بعد أن تودعني بنظرة استفزازية خاصة. قالت لك تنظيف الأواني في الميرديان ليس جيداً ولا يليق بك. لست أدري ماذا كانت تعني. وكل ما أعلمه هو أن زوجها عسكري مقعد، يمشي على عربة قديمة، تفوح منه رائحة المستشفيات والكافور. عيناه معصوبتان. قال له الطبيب، لا تنزع هذه العصابة إلا بعد عشر سنوات وسترى بعدها أنك استعدت بصرك كاملاً. عمره ستون سنة وأتصور أنه بعد عشر سنوات، حين يفتح عينيه، سيفاجأ بتربة القبر تملأ فمه وبرائحة الحموضة والعفن تنبعث بقوة من ثقوب جسده التي فرخ فيها الدود الذي يحلو له أن يدغدغ فضوله في الأماكن الحميمة التي كواها فراغ المراحيض والزوجة المخيفة.

حين انزلقنا من السيارة تزحلقنا تحت الضباب الكثيف. دققنا الباب. وجهها المحفور بالجدري أزعجني. كانت مكشرة ولم ترحب بعودتنا. ارتابت للحظة قبل أن تقول تفضلا. لم نخبرها عن سفرتنا التي صممنا أن نتركها سراً حتى آخر يوم. لو أخبرناها لافتعلت انزعاجاً كبيراً وللعنت تعنت الزمن الصعب. وتعيد بسط دموعها وأحلامها أمامنا. لماذا يا الله تفعلان هذا. أنا وحيدة وبرانية وقليلة الولي. عشرتكم منحتني دفء البلاد الغائبة. أنا كذلك أنوي العودة. أدفن هذا العسكري المقعد وأعود. تبكي بأعلى صوتها كأنها استرجعت فجأة وجعاً قديماً أكلته الحروب الفائتة. مع أنها، حين أخبرتها مريم بوفاة أمها، لم تحرك ساكناً. انزعاجها في مواجهتنا في تلك الساعة منعها من ممارسة وداعتها المعهودة. ودعتك عند الباب ثم قفلت راجعاً إلى نفس الشارع. عند الدرج السابع سمعت صوت أختك المستفسر.

ـ إذا كنت ستتأخر قل لي حتى أفتح لك الباب باكراً.

لم تنه كلامها. فكرت أن أعود، وألعن ربها وألعن الأيام التي جمعتني بوجهها.

قالت مريم بهدوء تناهى إلى مسمعي مثل نغم شجي.

ـ يا أختي، لن يعود حتى العاشرة من صباح الغد.

ـ لماذا لا يبيت هنا. الوسع في القلوب.

شعرت بمريم تضع عمق يدها على فم أختها.

ـ قلت لك عنده شغل مع صاحبه حميدو.

ـ لكن لماذا هذه الحقائب؟ ها ها. طلقك التافه! راح نعلمه الزنباع وين ينباع. كلهم متشابهون، يأكلونك وحين تتركينهم، يقبلون رجليك والتراب الذي تمشين عليه. أنا قلتها لك يا مريم وأنت ماتسمعيش.

ـ سأحكي لك فيما بعد.

ـ والله زعافي راح نرده في القرمة المقعدة قدامي.

سمعت قبل أن أغيب وسط ظلمة الضباب، قعقعة صوت زوجها المندس بين الفراش والوسائد القديمة ورائحة المستشفيات بدون أن يغادر عربته الحديدية.

ـ أريد أن أبول. أبول.

ـ أسكت الله يسكت روحك.

اشتممت رائحة العفونة التي كانت تخرج من جسده المدود. في الطريق حاولت أن أجد أعذاراً لأختها التي طلقت أهلها وهربت معه قبل أن تحدث الفضيحة ويعدم باسم الخيانة الوطنية العظمى وإيصال المعلومات السرية لجاسوسة مشبوهة، تعرف تفاصيل البلد بعد استخراج مني الرجال العديدين الذين يستقبلهم فرجها وتحليله في مخابر خاصة في باطن الأرض، فترتسم جزئيات حياتهم والأسرار العسكرية وتفاصيل الهزائم التي منيت بها جيوشهم وما تزال حتى لحظتها محفوظة ضمن أسرار الدولة مع بعض الأختام القديمة.

ذهني بدأ يتحول إلى بياض كبير. حين حملت الحقيبة، تذكرت جدي دون كيشوت الذي بقي هناك يقاوم البؤس. كان هو الوحيد الذي لم يهرب. أما أجدادي الآخرون، فبعد سقوط غرناطة، امتشقوا الألواح وخاضوا غمار البحار عائدين بهزائمهم وبنزعاتهم الاستعمارية الفاشلة. بعضهم سقط في البحر. البعض الآخر قاوم حتى وصل إلى بلاد المغرب، في يده قطعة الخشب التي أنجته من موت البحار. أحدهم، أحد أسلافي، قاوم البحر والقفر والرمل، وفرخ في كل المدن التي حج لها وقيل له إنه مات في بلدتنا. تقول جدتي التي كانت تحبه وكانت تسميه رمضان الموريسكي: كانت عيناه قاسيتين. بيني وبينه عداوة تقليدية رغم جماله المدهش. كان

هذا قبل أن يثبت رجولته ويطوعني. فض بكارات نساء المدن التي اقتحمها وخشبته على ظهره. قطع بها الوديان والبحار هرباً من مدافع الإسبان وسكاكينهم، ومن طالع العجوز، محلوقة الرأس التي تنبأت على حجرة الكريستال بسقوط مدينة غرناطة. الجد الوحيد الذي قاوم الجزويتيين على تربتهم وفي قلاعهم هو دون كيشوت. كان هيدلجا طيباً وحالماً مقهوراً.

وحالماً مقهوراً. جن بعشقه للحياة ودولثينايا التي تقلب أحزانه فرحاً وتنسج أحلامه من أنقى أشعة الشعر، في ظل السكاكين ومحارق محاكم التفتيش المقدس. صحيح أن سلاحه كان يدعو إلى الشفقة لكن إيمانه بعيون البلدة ودولثينايا كان أشد خطراً. لم يكن سانشو يعلم أن آخر الفرسان كان قادراً على معرفة تفاصيل الحياة بكل هذا العمق: *الحرية يا سانشو هي أثمن العطايا. لا شيء يقارن بها. لا الكنوز المكنوزة في الأرض ولا الكنوز المكنوزة في أعماق البحر. على الإنسان أن يجازف بحياته في سبيل الحرية. أما العبودية فهي على العكس من ذلك. إنها أكبر تعاسة يمكن أن تصيب الإنسان(*). كره بكل صراحة الذين ورثوا دماء غرناطة من الدوقات وأسياد الأرض الذين يزهون كالديدان في الظل البارد للطغيان. والذين لا يتوانون عن الضحك عالياً من ابتهاج الدون ـ فو Don - fou كما كانوا يسمونه.*

يقف سفيان الجزويني فجأة عند الأنف كالريح التي أفقدتها الأمطار طعمها الجميل.

ـ أنت صرت أعمى يا فاوست. من الذي حشر في ذهن هذا المجنون أنه فارس متجول وأنه قهر العمالقة الوهميين؟

ـ يصعب عليك الفهم يا سفيان.

ـ وأنت من الذي أقنعك أنك شاعر كبير؟

(*) من رواية دون كيشوت لسرفانتس.

ـ أنا لم أقل ذلك أبداً. ومع ذلك أنت عاجز عن فهم جوهر الإنسان. الذي يتعامل بالمعدن واللاسلكي والزرواطة لا يفهم إلا بهذه اللغة. وهنا الصعوبة يا سفيان.

قالوا له مع ضحكة وسخت هدوء البحار الزيتية. الأفضل بعض أجدادي مفخرتي الكبرى. دون كيشوت أروع أسلافي في السخاء. قدور برمضان زوج حليمة الفيل، كان سيدهم في الجرأة والشجاعة وأقلهم حظاً. لم ينكسر أمام عيون المحاكم المقدسة مثله مثل دون كيشوت. رجولته هزمت فعلهم: *لقد ولدت فارساً وسأموت فارساً. بعضهم يسير على الدرب الواسع للخسة وضحالة الفكر. بعضهم يزحف طوال الحياة عبر غبار الخنوع العبودي والتملق. وتفضل الفئة الثالثة درب النذالة المرائية. وتسير الفئة الرابعة على درب الفضائل الحقة، وأنا أسير بحظ من نجمي، على درب الفروسية المتجولة الضيق، محتقراً الغني لا الشرف*(*).

ـ كه. كه. يحتقر الغني. هذه هي حكاية العنب والثعلب.

ـ ألم أقل لك أنه لا يمكنك أن تفهم أبداً.

أنت يا سفيان واحد من جامدي الكنيسة الكاثوليكية. لا تعرفون مقاومة الخساسة. أن تحب دون كيشوت لا يعني أن تصبح حالماً وخيالياً وإنما يعني أولاً وأخيراً أن تملك أعظم إيمان بالمستقبل. وأنا. أنا يا سفياني العظيم. متأكد من أن الحياة والشعر هما ابتهاجي الأكبر. هو قاوم فيالق شرطة الكنائس الكاثوليكية وأنا فشلت في درء هجومات قزم منحدر من سلالة خسيسة. ومع ذلك، حينما انحدرت نحو زقاق مظلم، قال لي سفيان بهدوء من ما زال النوم يغالبه.

ـ اهتمامك بهذا المجنون يأتي من شعورك بالنقص. فهو لا يستطيع أن يكون نبيلاً. مجرد هيدلج متواضع وأنت فاشل تماماً في

(*) من رواية دون لحيشوش.

العودة إلى نشاطك الطلابي الأول قبل أن تسجن وأضطر إلى الاستقرار في دماغك حتى إشعار آخر. بينكما شبه الخوف من ممارسة طقوس الحياة.

لم أستطع أن أرد عليه لأني كنت خائفاً بالفعل من شيء غامض. لكني في خلوة ما تذكرت صاحب المائة ديوان والشرقي الذي يحب تروتسكي ويحارب السلطة ببعثرته ورق المراحيض ومعجون الأسنان. وسعيد الذي صمم على إغراق المدينة بعدم غسل وجهه ودعوة كافة المواطنين للسير في طريق المقاطعة.

الطريق العظيم هو طريق النصر على الظلم والطغيان. جدي يا سفيان كان سعيداً بأن يكون هيدلجاً وأن لا يعود إلى أمواله البائرة. وأن يخرج من غلطة الموت. أما أنا ففرحي الوحيد وابتهاجي الأكبر هو أني سأعود غداً وأنه سيأتي يوم أكتب فيه قصيدة عن مريم، تهزمك ولا يهزمها وجودك لأنك تكون قد انتهيت انتحاراً.

ـ أنت تدفعني نحو محوك بسرعة.

ـ وماذا تنتظر يا سفيان؟

ـ من فضلك. السرجان سفيان.

قالها بشكل آمر وصارم.

أحياناً أشفق عليه. أجد شبهاً كبيراً بينه وبين زوج صديقتي مريم. حياته مرهونة بوجود إنسان آخر. الفارق الوحيد بينهما، هو أن عيونه موصدة مثل الباب الخشبي القديم، ينتظر شيئاً مهما بعد عشر سنوات. أما سفيان، لا شيء ينتظره غير الميتة القاسية. ميتة الكلب المتشرد.

في الطريق، دندنت. الأغنية كانت حزينة. فكرت أن أركب سيارة. لكني ألغيت الفكرة. وحين أردتها بالفعل لم أجدها. الوحيدة التي مرت، فصل بيني وبينها ضباب المدينة. أحب الشوارع ليلاً، لكن في هذه المرة، كنت أشعر بالخوف منذ خرجت من البيت مع مريم.

الضباب يورث النفس حياة خرافية ويذكر بفرحة الطفولة الغامرة. كان اليوم رائعاً. تغذينا في مطعم عادي. أكلة طيبة ولم تكن خارقة. ثم بدأنا نتسلى بحركة الناس التي غابت تحت كتل الضباب وبأضواء السيارات التي كانت تشبه فوانيس صغيرة، متحركة في فضاء واسع. هدوء عينيك يثير أيام الطفولة يا مريم. أفراح اللقاء الأول والبوح والخوف من رفض هذا الحب. العينان مغمضتان. الشفاه الدافئة والملتصقة بحرارة. وجوه المتاحف التي كانت تثيرنا بحفرها. مر زمن على ذلك اليوم الذي صار بعيداً. يا الله؟! يستحيل أن تغيب هذه الشموس التي تعودت كل صباح أن تغتسل في عينيك الصافيتين. الدمار يا مريم لا يغيب الفرحة. في الفراش، حين هربنا إلى فندق سيدي الهواري، وقبل أن يفاجئنا الوجه الرصاصي، كان جسدانا قد توحدا نهائياً. كنت ترتجفين كمراهقة تمارس الحب للمرة الأولى. خفت أن تنفجري بين يدي كقطعة كريستال ويغزو الخوف فرحتك الصغيرة. كنت تحلمين في دفء الفراش بالشموس الكبيرة وأغاني البلاد البعيدة. وقبل أن أخرج من تفاصيل جسدك الذي أحرقني، هتكت السكين الباردة، حجاب الضلوع واستقرت هناك ببرودة لتجعل حداً لأحلامي وتوقفني في الزاوية كحجرة الوادي اليتيمة عند الكشك الذي يبيع الجرائد. تألمت. وقبل أن ألتفت بحثاً عن متكأ، فكرت في الجري بأقصى سرعة بحثاً عن جثة صالح ولد لخضر لصنامي الذي جاء من بعيد لينفذ مرضه. لكني عدلت عن الفكرة لأني شعرت لحظتها بقليل من الوهن يبدأني من الركبتين. حين التفت لم يواجهني إلا الحائط المثقل بوجه الطفل الجميل وهو يمارس العادة السرية المفتعلة. يطوط ذكره ويصرخ ضمن ابتسامته المقاسة بالمليمترات [لا تكن صبيا.. اتصل بوكالتنا].

الصورة تستفزك يا سارجان سفيان. مزعجة. وأنت تتأملها معي، رأيتك لأول مرة تصمت ولا تعلق. المرة الوحيدة التي تستفزني فيها بصمتك. لم ترد عليَّ. أثارني سكوتك المفاجئ. شعرت بك مذعوراً. تختبئ وراء المتاريس الرملية. في يدك اللاسلكي في انتظار

الإشارة التي تحلم بالتقاطها كل ليلة. لكني حين أعدت قراءة الكتابات السوداء بصوت عالٍ. قطبت جبينك العجوز. أدخلت رأسك في جلدك ولم تترك إلا فوهة اللعبة المعدنية ظاهرة من بين أكداس الأكياس الرملية. في الداخل كان إصبعك مقوساً على الزناد استعداداً لتفجير خلايا الدماغ. منهمكا باليد الأخرى، في تكتكة اللاسلكي للحصول على إذن التدمير وأكسدة الدورة الدموية. ثم تمتمت قبل أن تفتح عينيك على أخرهما مثل ضوء شاحنة عسكرية ضخمة.

ـ والله نجوت من قتلة مني ولد فاطمة الهجالة. عمرك طويل.

ـ السارجان لا يفكر إلا بعقل السارجان يا السي سفيان. هذه هي الدنيا. الله غالب.

الفصل الثاني عشر

حظ فاوست

قبل أن يغيبني ضباب المدينة بشقاء، التفت ورائي. في قلبي بدأت شطحات الذعر تتحول إلى شيء يشبه سيقان القمح الجافة، التي تنتزع لحمة الأرجل بمجرد المرور عليها. تطلع الجلدة أمامك، تتكور بكل برودة مخلفة وراءها خيطاً من الدم. كنت في حالة خوف كمتوجس إلى شيء لا يعرف تفاصيله.

يا عالمي القديم،

إني أعيش في الظل.

عندما تشعر أنك وحيد مثل القفر،

تأكد أن الحب ما يزال بعيداً.

الجرح. هذا الدم الذي يسيل دمي، مع أن البحر خلق أزرق للجميع. فلماذا يا مريم الوديعة يلون القلق عينيك بالسواد والظلال الباردة؟ صدقيني، أريد أن التفت نحوك، لكني لا أريد أن أتقهقر إلى الوراء.

مداخل المدينة كانت مغلقة.

رأيت الشوارع سوداء.

وجوه الناس بدون ملامح.

بياض العين أسود كالقطران. وسواد العيون اضمحل كعيون الذين ماتوا منذ زمن مغرق في البعد لدرجة النسيان. واصلت

تدحرجي. شعرت بالمدينة تتخفى ذعراً وراء ألمها الكبير وتشرب الخمر خلسة. شوارعها المتلفة بهذا الضباب تترنم عبثاً بحزن المقتول في فرحه. الأمطار التي زادت قوتها منذ لحظات بدأت تتلون بلون فرح مريم. حاولت أن أركض وأنط، لكني في لحظة ما، شعرت بنفسي أشيخ مثل شجرة خروب يابسة جففتها الوحدة القاتلة وهموم السنين. تذكرت جدي الذي كان يؤتى به من الزرائب ليضاجع زوجته الشبقية التي تكبره بأكثر من عشر سنوات. وهو الطفل المذعور من حكاية الجنس أمام امرأة ضخامتها مخيفة. يضحك حين يتأمل نعومة عضوه وصغره الذي لا يقنعه. حين يلمحه ينتصب بين يديه، تغمره سعادة كبرى ويتذكر وصايا النفزاوي. يشبّره. أكثر من أربعة أصابع، خلاص. مقياس الرضى. لقد صار قادراً على مضاجعتها وتوليدها. سأعلمها معنى الجنس. وحين يقربها، يأخذه الغثيان. يتلوى ذكره تحت خشونة يديها مثل علامة استفهام أو كالدودة. فيهرب من جديد إلى الحديقة ويتركها وراءه في حمأة من الصراخ: يا ويلي؟ جابوا لي فرخ حمام يولدني. يسمعه أبوه، فيجري إلى الحديقة أو إلى حارة الأغنام التي يتخبأ بين أرجلها. هي الوحيدة التي عرف في حياته كيف يضاجعها. يصرخ والده: ها هاه، يا آخر أولاد سلالة أولاد برمضان. أمش قدامي يا الله. جدي قدور هذا كان طيباً ومولعاً بسقوط الأمطار. علمته الدنيا أن لا يخجل بسهولة. حتى حليمة الفيل طوعها فيما بعد وولدها. يخرجني من هذه الدار. أرواح هنا يا ولد الهجالة. ويدعوني إلى الركض معه. أركض. أركض يا ولد فاطنة. المطر لا يعود أبداً. مرة واحدة في العمر. شيخوخته تتضاءل. يتصاعد البخار من فمه. تزداد أفراحه التي حاربتها حليمة الفيل قبل أن يطوعها. ينزل الشبن إلى الأعماق الطفولية التي تعشق الحياة بنهم غريب. يزداد بياض عينيه صفاء وإشعاعاً. تضمر التجاعيد ويسود شعره الثلجي الذي ينسدل على عينيه. لحيته. جبهته العريضة. يرمي عصاه في الفضاءات الرحبة ويركض. يتكور مثل قطعة ثلج كبيرة. يحفر حفراً في كل

مكان. يدفن إحباط الطفولة المنسية. وحين يتعب، ينام على نثار الثلج، ومعه تنام الشمس وطفولتي ولا أستيقظ إلا وأنا في حجره وهو يسخن الخبز اليابس. تعجبني فرقعة جمار المدفأة الترابية الصغيرة. فأعيد دفن وجهي في صدره تحت الغطاء الذي كان يلفني به.

حاولت أن أركض تحت خيوط المطر الذي ملأ المكان فجأة. كانت المياه تتكسر تحت عجلات السيارات كالبرق، مسرعة، الله يلعن والديك. وسختني يا وحد الحمار. وحين تمد يدك ينظرون إلى عينيك من بعيد ولا ينتظرون. هذا واحد سكران. بالرغم من أن ضباب المدينة بدأ في الانكشاح إلاّ أن حالة الخوف من الموت بدأت تستفز هدوئي أكثر. سفيان الجزويتي كان قد صمت وبدأ يسخن رجليه من البرد. وهو حين يصمت، أشعر بخطورة الموقف الذي يحيط بي. الأضواء انكسرت ألوانها في مستنقعات مياه المدينة، التي وجدت نفسي غارقاً فيها حتى الصدر. ومريم. آه يا مريم. الليل والنجوم الهاربة التي تتقاطع في أفق مغلق. ما تزال بعيدة. بعيدة جداً. تحسست الجرح. أذهلني مرة أخرى أنه لم يتوقف وعاد إلى النزف مع قسوة الأمطار التي أصبح وقعها ثقيلاً جداً. الماء مخيف. *موت لبحار أبويا والبر بعيد، بعيد، وصياحي طال أبويا*. آه يا ولد فاطنة الهجالة يكفيك غناء، أمش. أمش. لم يبق بينك وبين بيت حميدو إلاّ القليل. لكن. لكن كفيك فارغتان ووجهك مغبر ودماغك مشلول. وسط هذا الدمار، هناك يا ابن فاطنة الهجالة، نور يشع من بين أصابعك كقوس قزح. المدينة سكرت ولم تعد تهتم لا بتفاصيلي ولا بتفاصيل غيري. حتى الإعلانات سحبت الأمطار ألوانها الفاقعة تاركة فقط آثارها على كل الحيطان. شعرت بطفل العادة السرية العلنية والمارلبورو يرتعد على قصعة المرحاض. لبس لباسه الرث. حزم حقيبة الكتان ثم نزل إلى قلب الشارع. مارلبورو. مارلبورو. مارلبورو.

ـ يا ابن آدم. والله أنت السكران وليست المدينة.

قالها السارجان سفيان ثم عاد ليختبئ بين المتاريس وينام. والله أكاد أفقد عقلي وجنوني. من أين تأتي هذه الفراشات المعلقة على لمبات الشوارع؟ وهمسات العصافير ورقص الأقواس القزحية التي ملأ ضجيجها الفضاء الرحب؟ والأصوات العذبة التي تشق نبراتها المريحة آلاف الأطنان من الأتربة التي نامت على ظهرها وعادت تمارس الحياة بشيء من الكبرياء، من أين يأتي كل هذا النور العظيم؟ وأنت يا ابن الهجالة لماذا لا تغنّي كما كنت تفعل قبل قليل؟ عن. عن. كانت مريم تقول لك دائماً، يجب أن تغني حتى في أحلك المواقف، على صوتك أن يظل حاراً وحياً مثل النور. أرجوك واصل ولا تتوقف.

مريم. أنت وتر والبحر قصيدة.

مريم عمدتها أملاح سواحل المتوسط قبل أن تموت عيون عشاقها. سقطت من رحم موجة هربت من ظل مجهول وتكسرت على متاعب صخور الشط المهجور. غن. أنت نبية والبحر رسالة المدينة. أخوتك السبعة أكلتهم الحرب التي سحقت أحلامهم واحداً واحداً. كان يجب أن يلوح لهم من وراء الجبل البعيد، بالمغزل بدل المنجل. حلموا بأنثى وقالوا ثامننا دماراً سيكون. وكنت تحلمين بعيونهم. لكن الحرب الكبرى التي أكلت فرحتهم طحنتهم في مضغة. ولادتك كانت عسيرة. قالت أمك في نفاس الخوف لزوجة أبيك لوحي بالمغزل. لوحي، ماذا تنتظرين، لقد جاءت الطفلة التي انتظروها العمر كله؟ في غمرة سقوط الساموراي، استرد عمك زوجة والدك. فتحت رجليها له بسهولة كبيرة. خرجت من عسر الموجة، كان أخوتك السبعة قد هاجروا نحو نيران الحرب الكبرى. تمنيت أن ترفعي صوتك عالياً ليسمعوك في قبورهم، لكن رغوة الملح كانت قد ملأت فراغ فمك، فارتد الصوت على صخر الشط وانهار ليغرق نهائيا. غن حبيبي ولا تتوقف. فقدت كل شيء ولا أريد فقدان صوتك.

مريم، أنت نبية والبحر قصيدة.

حين تبسمين، تستقيم الحياة.

أنت مريم. فرحتنا مطر.

أبوك اختار قبره في قنينة نبيذ حتى لا يمسه القتلة. سأغني الرجل العظيم الذي رفض الذل والقهر واختار برزخه، الضيق والمرور عبر عنق الزجاجة. أبوك أنهى أيامه بطريقة الساموراي. اختار القنينة قبراً قبل أن يتحول إلى مفخرة عالمية وتحفة القرن العشرين الثرية التي تسر السواح الذين بدأوا يقدمون إلى بلادنا بأعداد مخيفة مثل الجيوش التتارية فقط لاكتشاف سحر ابتسامته وأصبعه الأوسط الذي يقوسه نحو كل من يراه ونحو وجوههم مثل الجنين. يشعرون بمتعة سادية.

جريمتك يا ولد فاطنة الهجالة، هي أن الجريمة استعصت عليك.

حاولت أن أفتح عيني عن آخرها. يا إلهي. هذا الهواء البارد قاس. يعطي لهذه الوحدة طعماً مراً كعيون الموتى. ينفذ من القلب إلى الجرح سكيناً صدئاً. يغيب البلدة بين مسامات المتعبة. كلهم يفكرون للآخرين. حميدو المسكين وصديقي الوحيد في هذه المدينة، يريد أن يحل مشاكل العالم السفلي بكأس بيرة. الشرقي تأكله هموم السياسة العالمية. تحول إلى شخصية كوسموبوليتية كاريكاتورية. مصر على محاربة السلطة من خلال ورق التواليت ومعجون الأسنان. سعيد. لم يتغير. حله الوحيد أن يغرق هذه المدينة نهائياً لكي لا يسمع بوجودها.

كلهم يفكرون للناس ولا أحد يفكر لنفسه.

مريم. يا مريم.

لماذا هذا الصمت القاتل الذي ينزل على شقاوة الجرح؟

حين يلج الفجر عينيك ويقتحم قلبك، لماذا تبكين بحزن أشقياء هذا الليل؟ أراك، دائماً ساحرة مثلما التقيت بك للمرة الأولى. شعرك الساحلي الجاف يغطي وجهك الخمري. اليدان في جيب المانطو

الإيطالي الفضفاض. تبحثين عن مرساك المكسور، وبين أسرار البحر، عن الموجة التي أنجبتك ثم فرت إلى صخور الشط المهجور هاربة بسبب الخديعات المتكررة. تحبين شجي المطر. تورثك آلام شاعريتي الوهمية الرغبة في التحليق عالياً، نصفر. ندندن برحابة صدر، نتحول في لحظة سكر إلى دمعتي كريستال. ثم إلى مغنيين فظيعين وأصواتنا إلى حنين العصافير والطيور التي تتعبك بعيونها الصغيرة. في الطريق نقهقه قبل أن يبتلعنا المنعطف المكسور وعيون الناس السرية.

- مالك؟

- أفكر فقط.

- إذن أنت موجود. ها.. ها.. ها.

ترتفع الضحكة عالياً. يتمزق هذا الليل المخيف شيئاً فشيئاً.

- دعينا من الكلام الفارغ يا مريم.

- أفرك ربها تربح. هيّا. لن تحمل العالم على ظهرك.

- وهو لن يتحمل حماقاتنا.

- طيب يا سيدي. هاه أكرر. مالك؟

- مصاب بخيبة أمل. وحين نصاب بذلك معناه أننا بدأنا نفقد شعور التلاؤم مع الحياة.

- يا سيدي ليس هذا وقته. خليها على ربك.

- مرعوبون يا مريم من خوف كالسكين يفاجئنا في أية لحظة. ليس مهما. لكن الخوف هو أن نموت مجاناً بدون أن نقدم شيئاً مهماً.

تذكرت. ولست أدري ما العلاقة. صالح الوراق الذي ضبط متلبساً بالجريمة. كان يخطط رسماً للقمر فاتهم بتهمة المساس براحة المدينة وأسرارها الحميمة.

- أنا لك وانتهى. ومن لديه قدرة على قتلنا، فليفعل.

- ربما كان هذا عنصر المأساة. أنا كذلك أحبك وأقول طز في البقية، لكنه يمرر عيشتنا.

وحين انزلقنا بين الشوارع التي تنام باكراً كنا قد تحولنا إلى وردتين مضمختين بأمطار الشتاء. حدث هذا منذ زمن بعيد، حين سمعت للمرة الأولى بأنه هنا ولم يكن في المدينة. قيل إنه جاء في مهمة غامضة. ويقول بشهادة الذين رأوه، أنه سيفجرها. ويقسم البعض الآخر أنه يحمل مدفعاً رشاشاً. ويحلف آخرون برأس الأجداد أنهم حين استفاقوا ليلاً، وجدوه يشحذ سكيناً صدئة قديمة. قال لهم أنه ينوي قطع لسان رجل ما في هذه المدينة. وأعطاهم كل صفاتي. لكن بعد فترة، تراجعوا عن كل شيء، حتى الذين ادعوا أنهم حدثوه في المطار، تريثوا في كلامهم، غابت الحكاية وسط ثرثرة مقهى القنديل أو المصحة العقلية. قالوا سمعنا من بعض الناس. لعنت حميدو. فسخر من منطقي وغباوتي وقاطعني لمدة أسبوع، قبل أن يعود ويعتذر. يا أخي أنا سمعت بالخبر فقلت يجب أن أحيطك علماً. لكن هل هذه المرة سحبوا كذلك من شرنقة الزيف كذبتهم الجديدة؟ أنا سمعت خطواته. مشيته وهي تنكسر على زجاج الأزقة، هو هنا. قالها صالح من زمان: إذا أخذت مني مريم، سأوصلك إلى القبر وسأقتلها وبعدها أنتحر. احذر.

حين انتبهت لحالتي، كنت قد تجاوزت بيت حميدو ببعض الخطوات فتراجعت قليلاً. وقفت لحظة أسترد أنفاسي التي ضاعت وسط دمار هذه المدن الحجرية. هذا هو سكن حميدو وهذا هو المدخل الرئيسي. قرعت الجرس. أعدت القرع مرة أخرى لأني لم أكن مستعداً للانتظار ولا لحظة واحدة. لم يرد علي أحد. ضربت على الباب بكل قوة. صرخت. حميدو. أنا أفتح. لكن الأبواب الموصدة منعت صوتي من اختراق جدار الصمت الذي كان يخيم على المدينة مثل مرض الطاعون. يستحيل. هو هنا؟ لا يمكن؟! دق مرة أخرى. شعرت برجلي تخوران، بالقلب تخفت دقاته، بجسدي يثقل

مثل الرصاص، بالمدينة تنقلب على رأسها، بالمطر يتحول إلى سوط جلاد عتيق في مهنته. جلست على ركبتي بوهن كبير. لم أعد أشعر إلا بالجرح والآلام، ودق اليد الثقيلة المنهكة. يا الله. ما هذا الجرح المزعج؟ هل هي علامات الموت؟ بدأت الألوان الصدئة للباب الحديدي تتداخل مع وجه حميدو. ماذا؟ كم أشتاق أن أناديك من قلبي يا مريم. أين أنت الآن يا ابنة أمي وأبي؟ موت العزلة صعب، أريدك أن تكوني ههنا. أردت في لحظة ما أن أشتم صمت سفيان الجزويتي الذي لم يحرك ساكناً ولكني سرعان ما عدلت عن الفكرة. صمته أحسن من استفزازاته التي يصعب علي تحملها. تدفعني إلى التقيؤ. وقبل أن يندفن رأسي عند عتبة الباب صرخت بأعلى صوتي حتى سمعت الوحوش البحرية تتجاوب لصرختي، وانزاحت الظلال الباردة.

- حـ.. مـ.. يـ.. يـ..يـ.. دو..ووووووو.

رفعت يدي بأقصى قوة ممكنة ثم تركتها تهوي على صدأ الباب بكل ثقلها. لم أشعر بالألم رغم خيط الدم الذي تسرب خطا أحمر على ظاهر يدي اليمنى.

كان البرد قد جعل مني شبه جثة هامدة. وقبل أن أدفن عيني في ظلمة القبر، تحت سيول المطر، رأيت ضوءاً داخل الحجرة وسمعت غزغزة الباب وهو يشرع عن آخره بكل هدوء. حمدت الله أن صديقي حميدو في بيته أو على الأقل أحد أصدقائه.

للمرة الثالثة أشعر بامتعاض في بطني وبما يشبه الملوحة يملأ فمي. واجهتني عينا طفل الإعلانات وقد انزعج وهو يرى وجهه على حيطان المدينة التي ثقبتها الحروب الفائتة. رأيته يقوم من الصورة بتثاقل ويمضي بعد أن يبصق على الأرض ويلعن الشيطان الوسواس الخناس. قبل أن يهرول، يقنع نفسه أن لا أحد يعرف في هذه المدينة بأنه كريمو بائع المارلبورو، الجوال الذي يختبئ وراء ألبسة رثة أكبر منه، وينام وسط ألبسة داخلية جديدة نسوها عليه

في غمرة اهتمامهم بتحضير وجه المرأة الوديعة السيدة ذات القامة العالية والمكلفة بالإعلان عن المستحضرات التجميلية الجديدة. ولكن فجأة انتبهت لنفسي، هل هي حقائق أم هذيانات ليست في النهاية إلا علامات الموت القريبة؟

كمشت ورقة القضاء التي أتلفت الأمطار أحرفها السوداء. ضغطت عليها بكل قوة في باطن يدي. بأقصى قوة ممكنة. تذكرت كلام صديقي، يجب تفادي كل التهم الممكنة. بين الأخلاقي والسياسي مسافة قصيرة، قصيرة جداً.

بذلت مجهوداً كبيراً لرفع رأسي عالياً.

انتبهت إلى وقع الخطوات التي تكسرت على الأدراج وعلى ضوء فوانيس الأبواب الخافتة. كانت أعضائي المتعبة قد بدأت تفقد حرارتها. سعلت، هذه المرة طويلاً. رأيت خيطا من الدم ينسحب من صدري مخلفاً وراءه آلاما حادة. زادت النوبة أكثر ومعها تحولت المدينة كلها إلى حجرة يابسة. بصقت مخاطاً ملوناً بالدم المخثر. ياه؟! ما هذا؟ أجهدت نفسي للتحقق من الأمر. هو. وحق الله. رأيته بصعوبة. يقوم من المخاط الذي خرج بعد أن جرح الصدر. ينظف نفسه بالورق الصحي من المواد اللزجة والدم. نفض ثيابه العسكرية التي تملأها النياشين مثل لعب الأطفال. عدل من وقفته قبل أن يستقيم كالخشبة.

ـ يا الله من أين جاء؟ هذا سفيان الجزويتي بلحمه ودمه.

ـ اخرس يا ولد الخامجة. الفرخ. قل السارجان سفيان. سيدك السارجان. تعديك علي، من الآن غير مقبول بتاتاً. استقم وانتظر الأوامر. أية حركة ستكلفك غالياً. فاوست أنتاع نمّي.

تحول وجهه إلى حديد. تماماً مثلما تخيلته. ناتئاً. تعيساً. بعين زجاجية، يقوسها عند الحاجة. رأيته بصعوبة. فتحت عيني أكثر. وقف عند الباب بصرامة. راشقاً سلاحه على الأرض، يتأمل الأدراج والباب الذي انفتح على وجه مشبوه، على عينية تنام نظارتان

سوداوان مثل رئيس زمرة انقلابية. كانت الأمطار قد جفت فجأة. بصقت مرة أخرى. شعرت بداخلي يرحل بكامله. جرى سفيان نحو بقية المخاط والمواد اللزجة، ليأخذ اللاسلكي ويمسحه بالورق الذي كان يحمله في جيبه ومسدس الماغنوم الثقيل. كانت الأصوات القاتلة تأتيني من بعيد.. آه يا ولد القحبة.. عضو في الاتحاد الطلابي وتكتب شعراً معادياً.. قم.. يلعن طيز أمك.. الفرخ.. سنشويكم مثل الدجاج ونمزقكم إرباً إرباً.

عاد سفيان إلى صرامته الحديدية مرة أخرى. ثم حيا الرجل الغامض الذي التحق به حميدو المدجج بالأكياس الرملية واللاسلكي والمعدن البلاتيني المخيف واللباس العسكري. ماذا يحدث؟ هل أنا هنا أن في عوالم الموت؟ حميدو، صديقي الوحيد في المدينة؟

ياه؟ حتى حميدو!؟ لا يعقل.

قرقعت الأسلحة فجأة وهي تضرب على الأرض بأعقابها، استعداداً لاستقبال الرجل الغامض.

ـ تحياتي ملازم صالح ولد لخضر لصنامي.

ـ تحياتي سارجان سفيان. هل من جديد؟

ـ كل شيء يسير كما يشتهي سيدي. الهدف دمر. فاوست يأكل التراب الآن.

ـ وحميدو، أين وصلت خطتك؟

قال صالح ولد لخضر لصنامي وهو يخرج سكينة باردة من غمدها، ما تزال عليها بقع الدم الجافة.

ـ قلت لسيدي صالح، نجيبو لك حتى للدار ولو كان يطيح في كرش لحنش. وها هو قدامك. الهدف دمر نهائياً ولم يعد قادراً على الأذى. ننتظر أوامركم لسلخ جلده وتقطيعه قبل رميه في القمامة للكلاب الضالة والذئاب الجائعة..

الغريب أني لم أشعر بأدنى خوف من التماعات السكينة التي

كانت تقترب من وجهي. لا أدري لماذا. كنت على قاب قوسين أو أدنى من الانطفاء النهائي. حين جفت الأرض من الماء، وبدأت السكاكين تنغرس في دمي وجلدي وتسلخني مثل الأرنب البري، كنت قد أغمضت عيني ولم أعد أرى شيئاً غير الظلمة ووجه مريم البعيد البعيد، من وراء المدن الحجرية والخلائق البشرية والكائنات الخرافية والضباب الأسود الذي كان قد ملأ صدري وقلبي وذاكرتي وعيني.

لا شيء سوى الهوة السحيقة والفراغ المهول وانطفاء الغيمة البنفسجية التي احمرت مثل الإسفنجة من كثرة الدم النازف، والعاصفة التي كانت تتهيأ في الأفق، لتدمير المدينة وسكانها.

لم يكن لدي حتى حظ فاوست.

شتاء دمشق ـ الجزائر

1984 - 02 - 09

الفهرس

الجنون الأخير	9
الفصل الأول: الشمس الملوثة	11
الفصل الثاني: عيون الموتى	41
الفصل الثالث: طواحين دون كيشوت	63
الفصل الرابع: أحجار الوديان الزرقاء	79
الفصل الخامس: أبجديات الكذب الأبيض	95
الفصل السادس: ظلال الحجر	103
الفصل السابع: خلوة الخائف	115
الفصل الثامن: طفلة الحارات	127
الفصل التاسع: لعنة المدينة	141
الفصل العاشر: مسافات الضياع	157
الفصل الحادي عشر: الحمامة المطوقة	177
الفصل الثاني عشر: حظ فاوست	189

صدر للكاتب

* البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق ـ الجزائر 1980.
* طوق الياسمين (وقع الأحذية الخشنة). بيروت 1981.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2002 Libre Poche).
* ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق 1982.
* نوار اللوز. بيروت 1983 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2001.
* أحلام مريم الوديعة. بيروت 1984.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2001 Libre Poche).
* ضمير الغائب. دمشق 1990.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2001 Libre Poche).
* الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق ـ الجزائر 1993.
* المخطوطة الشرقية. دمشق ـ 2002.
* سيدة المقام. دار الجمل ـ ألمانيا ـ الجزائر 1995.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2001 Libre Poche).
* حارسة الظلال. الطبعة الفرنسية. 1996 ـ الطبعة العربية 1999.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2001 Libre Poche).
* ذاكرة الماء. دار الجمل ـ ألمانيا 1997.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2001 Libre Poche).

* مرايا الضّرير. باريس الطبعة الفرنسية. 1998.
* شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت 2001.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2002).
* مضيق المعطوبين. الطبعة الفرنسية 2005.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2005).
* كتاب الأمير. دار الآداب. بيروت 2005 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2006.
* حارسة الظلال. دار ورد. دمشق 2006.
* طوق الياسمين. دار ورد. دمشق 2006.
* سيدة المقام. دار ورد. دمشق 2006.
* نوار اللوز. دار ورد. دمشق 2007.



أحلام مريم الوديعة

«هل بقيت للصراخ قيمة؟ لا أدري.

مريم أيتها الحبيبة المنسية وسط ضجيج المدن الهاربة واختلالات الرجال الغامضين، لا تقنطي، فالمدينة التي تعارفنا فيها لأول مرة لم تتخلَ عن وجهينا ولن تخون الحليب المر الذي رضعته من صدرك في ذلك اليوم المظلم الذي صممنا فيه أن نخون كل شيء إلا حبنا.

مريم، يا آخر السلالات التي قاسمت القديس أُغستين ظلمة قبره، لو يقدّر لي أن أبعث ثانية من مدافن الطفولة وأعود إلى سماء هذه المدن الحجرية الهرمة، سأُقْدم بفرح الساموراي على ارتكاب نفس الحماقة وسأكتب عنك أجمل أناشيد المطر وأدخلك أعراس الغيمة البنفسجية التي حلمنا بها، وسأطالب بالطفل الشقي الذي نسيته في رحمك قبل أن أغادرك للمرة الأخيرة، مرغماً، تحت قسوة العيون الهمجية».

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

✸ في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

✸ تحصل في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

✸ اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

✸ فاز في سنة 2007 بجائزة الآداب الكبرى (الشيخ زايد) عن روايته: كتاب الأمير.

✸ تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

